9Marks

مَن هو يسوع المسيح؟

غريغ غيلبرت

تقديم تريب لي

”سَأل يسوعُ تلاميذه: «مَن تقولون إنِّي أنا؟» وهذا سؤالٌ علينا جميعًا أن نجيبَ عنه. لِذا يبحثُ غريغ غيلبرت (Greg Gilbert) صفحات الكتاب المقدَّس بطريقةٍ مقروءةٍ وموجزةٍ ومدهشة ليُخرِج حقيقة ما قاله السيِّد المسيح عن نفسِه. إنَّ هذا الكتاب ضروريٌّ للمؤمن بالمسيح والباحث عن الحقّ“.

جيم دالي (Jim Daly)

رئيس هيئة ”التركيز على العائلة“ (Focus on the Family)

”إنَّ أثمَنَ ما لدى غريغ هو قُدرته على تبسيط الأمور العميقة. فكما يساعدنا كتابُه **«ما هي بشارة الإنجيل؟»** *(What is the Gospel?)* على تمييز البشارة الحقيقيَّة عن الزائفة، يُساعدنا كتابُه هذا على تمييز السيِّد المسيح مثلما قدَّم نفسَه مقارنةً بما ابتدَعْناه عنه“.

جاي. دي. غريَر (J. D. Greear)

راعي كنيسة القمَّة (The Summit Church) في دورهام، كارولينا الشماليَّة

ومؤلِّف كتاب **”يسوع متواصل... لماذا كَوْن الروح فيك أفضل من يسوع إلى جانبك؟“**

(*Jesus, Continued... Why the Spirit Inside You Is Better than Jesus Beside You*?).

”ليس هناك سؤالٌ في الكون أهمُّ من: «مَن هو يسوع المسيح؟» لذا يُفرِغ غريغ غيلبرت، ذو العقل اللامع والقلب الرعويِّ، ما تحويه إجابة هذا السؤال خطوةً تِلوَ الأُخرى، وذلك بفطنةٍ ويُسر. فسواء كنت مُشكِّكًا تبحث في هذه الأمور للمرَّةِ الأولى، أم مؤمنًا منذ مدَّةٍ طويلة، سيقودك هذا الكتاب إلى حيثُ نحتاجُ جميعًا لأن نذهب- إلى مجد الله في وجه يسوع المسيح“.

رَسِل دي. مور (Russell D. Moore)

رئيس هيئة الحرِّيَّة الأخلاقيَّة والدينيَّة (The Ethics & Religious Liberty Commission)

ومؤلِّف كتاب **”مجرَّب ومختبَر“** (*Tempted and Tried*)

”من الواضح أنَّه كتابٌ مسيحيّ، لكنَّه يتَّسمُ بالاحترام والخُلُق في محاجَجَته للمُشكِّكين، ويساعد على التفكير مليًّا في يسوع المسيح. حيث يسلِّطُ غريخ الضَّوء من جديدٍ على مشاهدَ مألوفةٍ، وهكذا فإنَّه يربط الحقائقَ بمعانيها. إنَّه كتابٌ بارعٌ، لكنَّه أيضًا بسيطٌ وملآنٌ باللاهوت الكتابيِّ الجميل. إنَّه دعوةٌ لك، أيُّها القارئ، لتتعرَّفَ إلى يسوع المسيح“.

مارك دَفر (Mark Dever)

راعي كنيسة كابيتول هِل المعمدانيَّة (Capitol Hill Baptist Church)، واشنطن دي. سي

ورئيس منظَّمة ”العلامات التسع“ (9Marks)

”يعملُ هذا الكتاب على أمرَين في الوقت نفْسه: يضعُ يسوع المسيح بموثوقيَّة ضمن سياق الزمان الذي جاء فيه، ويبيِّن لماذا لا يمكن عقلانيًّا تركُه هناك. هذا الكتاب هو لمن لم يفكِّر في يسوع المسيح، كما أنَّه لمن يظنُّون أنَّهم يعرفونه أكثر ممَّا ينبغي“.

تيموثي جورج (Timothy George)

العميد المؤسِّس لكليَّة بيسون للدراسات اللاهوتيَّة (Beeson Divinity School)

ورئيس التحرير ”للتفسير المُصلح للكتاب المقدَّس“

(Reformation Commentary on Scripture).

”إنَّ أهمَّ سؤالَين يحتاج المرء إلى الإجابة عنهما في ما يختصُّ بيسوع المسيح هما: مَن هو يسوع المسيح بالتَّحديد؟ وما أنسبُ موقف لي تجاهَه؟ لذا يخاطب غيلبرت هذين السؤالين بفاعليَّة في هذا الكتاب المهمِّ. فمن اللحظة التي سأل فيها يسوع تلاميذه حينما كان في قيصريَّة فيلبُّس عن الآراء التي تحيط بهُويَّته، لم يعُدْ هناك سؤالٌ آخر تترتَّب على إجابته عواقب أبديَّة مثل هذا السؤال. إنَّ هذا كتابٌ حادُّ الملاحظة مكتوبٌ بلَمسة روح الله الذي يكشف الستار عن يسوع، الذي هو المسيح“.

بايج باترسون (Paige Patterson)

رئيس كلِّيَّة ساوثويسترن المعمدانيَّة للدراسات اللاهوتيَّة

(Southwestern Baptist Theological Seminary).

”سيكون لهذا الكتاب القصير دورٌ عظيمٌ لتَعريف الناس- ومن ضِمنِهم الرياضيِّين الذين أُدرِّبهم- إلى أروع شخصٍ على مرِّ العصور“.

رون براون (Ron Brown)

مدرِّبٌ فريق كورن هسكرز في جامعة نبراسكا

(University of Nebraska Cornhuskers)

”إنِّي أبحثُ باستمرارٍ عن كتابٍ قصيرٍ وجَليٍّ عن حياة يسوع المسيح يمكِنُني إعطاؤه لمن يريد حقًّا معرفة مَن يكون يسوع المسيح، وما فعله. والآن وجدتُ ضالَّتي في هذا الكتاب. إنَّ غريغ غيلبرت مُحقٌّ في قوله: «ليست قصَّةُ يسوع قصَّةَ رجلٍ صالح؛ بل هي قصَّة المطالَبة بالعرش». ضع في الحسبان الأدلَّة المطروحة في هذا العمل، وراقب إلى أين تقودُك“.

دانيال إل. أكين (Daniel L. Akin)

رئيس كلِّيَّة ساوث إيسترن المعمدانيَّة للدراسات اللاهوتيَّة

(Southeastern Baptist Theological Seminary)

مَن هو
يسوع المسيح؟

غريغ غيلبرت

Who Is Jesus?

Copyright © 2015 by Gregory D. Gilbert

Published by Crossway
1300 Crescent Street
Wheaton, Illinois 60187

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form by any means, electronic, mechanical, photocopy, recording, or otherwise, without the prior permission of the publisher, except as provided for by USA copyright law.

Cover design: Matthew Wahl

First printing 2015

Printed in the United States of America

Scripture quotations are from the ESV® Bible (*The Holy Bible, English Standard Version®*), copyright © 2001 by Crossway, a publishing ministry of Good News Publishers. 2011 Text Edition. Used by permission. All rights reserved.

All emphases in Scripture quotations have been added by the author.

Trade paperback ISBN: 978-1-4335-4350-0
ePub ISBN: 978-1-4335-4353-1
PDF ISBN: 978-1-4335-4351-7
Mobipocket ISBN: 978-1-4335-4352-4

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data
Gilbert, Greg, 1977–
Who is Jesus? / Greg Gilbert.
pages cm. — (9Marks books)
Includes bibliographical references.
ISBN 978-1-4335-4350-0 (tp)
1. Jesus Christ—Person and offices. I. Title.
BT203.G55 2015
232—dc23 2014016639

Crossway is a publishing ministry of Good News Publishers.

LB 25 24 23 22 21 20 19 18 17 16 15
15 14 13 12 11 10 9 8 7 6 5 4 3 2 1

كل الاقتباسات من الكتاب المقدس مأخوذة من الترجمة العربية المبسَّطة، إلا إذا ذُكر غير ذلك.

إهداء

إلى جاستن وجاك وجوليت.

المحتويات

تقديم بقلم تريب لي	١١
ماذا تظنُّ؟	١٥
شخصٌ استثنائيٌّ وأكثر	٢٣
ملكُ إسرائيلَ وملكُ الملوك	٣٥
العظيم "أنا هو"...	٤٩
واحدٌ منَّا	٦٣
انتصارُ آدمَ الأخير	٧٣
حمل الله والذبيحة من أجل الإنسان	٩١
الربُّ المُقام والحاكم	١١١
الخاتمة: مَن تقول إنَّه هو؟	١٢٧
عن السلسلة	١٢٩

تقديم بقلم تريب لي

هل سبَقَ أن اختلطَ عليك الأمرُ وظننتَ أنَّ أحَدَهم شخصًا آخرَ تعرفُه؟ أَذكر مرَّةً كنتُ فيها في حفلٍ مع صديقي أيَّام المدرسة الثانويَّة. كنَّا قد وصلنا للتوِّ حينما رأينا صديقتنا نيكول (Nicole) واقفةً في زاوية الغرفة تُمضي وقتًا طيِّبًا. وحيثُ إنَّنا كنَّا قد أمضَينا وقتًا مع نيكول وصديقتها الحُبلى في اليوم السابق للحفل، قرَّرنا الذهاب إليهما وإلقاء التحيَّة. وهكذا، ألقى صديقي التحيَّة على نيكول، ومن ثمَّ أشار إلى بطن صديقتها بتبسُّمٍ وسأل بلطفٍ: "كيف حال الطفل؟". كانت المشكلة الوحيدة في ذلك أنَّ تلك كانت صديقةً أُخرى لنيكول، ولم تكن حُبلى. كم كنتُ شاكرًا أنِّي لم أكُنِ البادئَ في الحديث!

قد يكون الأمر مُحرجًا وظريفًا حينما يختلطُ عليك الأمر بشأن هُوِيَّة أحَدِهم. لكنَّك تعرِّض نفسك للظهور بصورةٍ غبيَّة وإمكانيَّة إهانة الآخر، لذا من الأفضل لك التحقُّق قبل أن تبدأ الحديث.

يدورُ الكتاب الذي بين يديك حول تمييز هُوِيَّة شخصٍ آخر، لكنَّ المخاطر هنا أكبر بكثير؛ فحينما نكون في صَدَدِ الكلام عن يسوع المسيح، فنحن نضع أنفسنا في خانةٍ أُخرى تختلف عن تمييز صديقٍ أو رفيقٍ قديم. والحال هنا ليست مجرَّد إحراج حينما نسيء الظنَّ بهويَّة يسوع المسيح، بل الأمرُ كارثيٌّ أيضًا.

لذا يرينا غريغ غيلبرت منذ البداية أنَّ عنوان الكتاب "مَن هو يسوع المسيح؟" هو أهمُّ الأسئلة التي يمكنُنا طرحُها. قد يبدو هذا سخيفًا للباحثين عن الحقِّ والمتشكِّكين، وقد يكونُ كذلك لبعض المؤمنين بالمسيح. لكنَّك إنْ تابعْتَ القراءة ستجد ما يجعلُ السؤالَ جوهريًّا. أجل، لن نُصادفَ المسيح رئيس السلام في الشارع أو في حفلٍ ما؛ فالأمر لا يتعلَّق برَبْطِ اسمٍ بوَجْهٍ، لكنَّه يتعلَّق بالتجاوب معه بالإكرام والثقة التي يستحقُّها.

مثلًا يكتب غريغ: "في اللحظة التي تبدأ فيها إدراك أنَّ يسوع المسيح هو بالحقيقة الله؛ وأنَّه على صلةٍ فريدةٍ واستثنائيَّة بالله الآب، ستُدرك أيضًا أنَّك إنْ أردتَ معرفةَ الإله الذي خلقَك، فأنت تحتاجُ لأنْ تعرفَ يسوع المسيح. ليس هناك طريقٌ آخر بتاتًا".

إن كان يسوع مجرَّد رجلٍ آخر، لن تُحدِث معرفته أيَّ فرقٍ في حياتك. لكنْ إنْ كان ابن الله والمخلِّص الوحيد للعالم، فستُحدِثُ معرفته كلَّ الفرق تمامًا.

غالبًا ما نخلط الظنَّ بين يسوع المسيح ورجلٍ عاديٍّ آخر، أو معلِّمٍ صالحٍ آخر، أو مجرَّد نبيٍّ آخر. لكن ليس أيٌّ من هذا الأوصاف كافيًا. لذا يساعدنا غريغ في هذا الكتاب، على التفكير جيِّدًا في مَن يكون يسوع المسيح حقيقةً.

أحببتُ هذا الكتاب لأنَّه ممتعٌ، وقد أمضيتُ وقتًا طيِّبًا في قراءته. إنَّه كتابٌ بسيطٌ كفايةً ليقرأه أيٌّ كان، كما أنَّه كتابٌ يعالج أسئلةً واقعيَّة. وأحببت هذا الكتاب أيضًا لأنَّه حافلٌ بنصوص الكتاب المقدَّس. ما لا يحاول كريغ فعله هو استحضار أساليبَ جديدة للنَّظر إلى يسوع المسيح،

فاهتمامه الوحيد هو في الحقيقة التاريخيَّة الفعليَّة. مَن يسوع المسيح هذا؟ ولماذا يهمُّنا؟ وبدل أن يركِّزَ كريغ على مؤرِّخين لم يروا المسيح قَطّ، فهو يركِّز على شهادة مَن قابَلوا المسيح من شهودِ عِيانٍ مَوثوقين، وينصبُّ اهتمامُه على كلمة الله، لذا فهذا الكتابُ جديرٌ بالقُبول، ويمكنُ القول إنَّ له قدرةً على تغيير الحياة.

أدلى يسوع بتصريحات مفصليَّة عن نفسه، وهو أكثر شخصيَّة دارَتْ حولها الأحاديث على مدى التاريخ. فما الذي ادَّعى أنَّه هو؟ وهل هو كذلك فعلًا؟ لا يمكنني التفكير في كتابٍ أفضل من هذا للإجابة عن تلك التساؤلات. أظنُّ أنَّكم ستَتباركون به مثلما تباركتُ أنا.

تريب لي (Trip Lee)

مغنِّي راب، وراعي كنيسة، ومؤلِّف كتاب "قُم: انهض واحْيَ في مجد الله العظيم" (Rise: Get Up and Live in God's Great Glory).

الفصل ١

ماذا تظنُّ؟

مَن هو يسوع المسيح بحسب ظنِّك؟

قد لا تكون فكَّرتَ مليًّا في السؤال، ويمكن تفهُّمُ هذا بطريقةٍ ما. فمن الواضح أنَّنا نتكلَّمُ عن رجلٍ وُلد في القرن الأوَّل لعائلة نجَّارٍ يهوديٍّ غير معروف. كما أنَّ يسوع لم يشغَلْ أيَّ منصبٍ سياسيٍّ، ولم يحكُم أمَّةً، ولم يَقُد جيشًا، ولم يقابل حتَّى أيًّا من الأباطرة الرومان. إنَّما كان هذا الرجل ببساطةٍ يعلِّم الناس الأمور الأخلاقيَّة والروحيَّة لثلاث سنين ونصف، وكان يقرأ النصوصَ اليهوديَّة المقدَّسة ويفسِّرها للشعب. وإنْ أردْنا تصديقَ ما سجَّله شهودُ العِيان عن حياته، قام يسوع المسيح، فضلًا عن ذلك، ببعض الأعمال الاستثنائيَّة. نَجِدُ أيضًا أنَّ يسوع سار ضدَّ تيَّار السلطات التي كانت في زمانه، وبعد مدَّةٍ ليست بطويلة من بدء خدمته العلنيَّة، آل به المطاف إلى الإعدام على صليبٍ تحت إمرة أحد الحُكَّام الإقليميِّين التابعين لروما، الذي كان إداريًّا مستبدًّا يحتلُّ موقعًا في الإدارة الوُسطى التابعة لمن لهم السلطة الحقيقيَّة.

وعلاوةً على هذا، جرت هذه الأحداث قبل نحو ألفَي سنة. فلماذا إذًا لا نزال نتكلَّم عنه؟ ولماذا يبدو يسوع المسيح رجلًا لا مفرَّ منه؟

امنحْ يسوع فرصة

مهما كان رأيك الشخصيُّ بالمسيح، فيمكننا غالبًا الاتِّفاق على أنَّه شخصيَّةٌ بارزةٌ في تاريخ العالم. لذا يُشبِّه أحد المؤرِّخين المرموقين تأثيرَ المسيح بالقَول: "إنْ أمكنَ سحبُ كلِّ قطعةٍ معدِنيَّة من التاريخ تحمل ولو أثرًا لهذا التأثير باستخدام شيءٍ يشبه مغناطيسًا خارقًا، فكم سيتبقَّى لدينا؟".[1] هذا سؤالٌ جيِّد، وقد تكون الإجابة: "ليس الكثير!".

لكنْ لأنَّ يسوعَ حقيقةٌ لا مفرَّ منها ليس فقط من الناحية التاريخيَّة، بل أيضًا من جهة العصور الحديثة. فكِّر مليًّا في هذا: ربَّما شخصٌ أو بضعةُ أشخاصٍ من معارفك هم مؤمنون بالمسيح، وربَّما يرتادون الكنيسة بانتظامٍ ويُرنِّمون ترانيم عن المسيح، أو حتَّى يرفعون إليه الترانيم مباشرةً. وإنِ استدرجتَهم بالكلام، قد يقولون إنَّ لهم علاقةً بشخصه، وإنَّ حياتهم تتمحور حوله بطريقةٍ أو بأُخرى. وليس هذا فقط، بل قد تجدُ عددًا من الكنائس من جميع الأشكال في أرجاء مدينتك. قد يكون بعض هذه المباني مزدهرًا بمجتمعٍ من المؤمنين بالمسيح أيَّام الأحد، وقد يكون بعضها الآخر لم يعد يُعدُّ كنيسةً بتاتًا. والمغزى من ذلك هو أنَّك أينما نظرتَ باهتمام، ستجد ما يُذكِّرك بهذا الرجل بالتَّحديد، الذي عاش قبل ٢٠٠٠ سنة. ويُلحُّ هذا علينا بالسؤال: مَن هو هذا؟

ليس ذلك سؤالًا سهلَ الإجابة؛ لأنَّنا لم نتمكَّن جميعنا غالبًا من الإجماع على الهويَّة الفعليَّة للمسيح. وصحيحٌ أنَّ قلَّةً قليلةً ما زالت تُشكِّك في وجوده، فالحقائق الأساسيَّة حول حياته- أين ومتى عاش، وكيف مات-

1) Jaroslav Pelikan, *Jesus through the Centuries: His Place in the History of Culture* (Yale University Press, 1999), 1.

هي جميعها مُتَّفق عليها إلى حدٍّ بعيد. لكن لا يزال هناك اختلافٌ صريحٌ، حتَّى وسط مَن يدَّعون أنَّهم مسيحيُّون، حول أهمِّيَّة حياته وموته. فهل كان نبيًّا؟ أم مُعلِّمًا؟ أم شيئًا آخرَ تمامًا؟ هل كان ابنَ الله، أم مجرَّد رجلٍ ذي موهبةٍ فذَّة؟ والأهمُّ من ذلك، مَن ظنَّ هو نفسَه؟ هل كان موته على أيدي الرومان جزءًا من الخُطَّة منذ بدايتها، أم أنَّه وقعَ في المكان والزمان غير المناسبَين؟ ويأتي بعد ذلك السؤال الأهمُّ: هل ظلَّ يسوع ميِّتًا بعد إعدامه صلبًا، حالُه حالُ جميع أمواتنا، أم...لم يبقَ في القبر؟

رغم الاختلاف بمجمله، فإنَّ الجميع يتَّفقون على أمرٍ واحد: كان يسوع شخصًا استثنائيًّا قال وفعل أمورًا غير مألوفة لدى الناس العاديِّين. وفضلًا عن ذلك، لم تكن أقوال يسوع مجرَّد حِكَمٍ لامعةٍ وأخلاقٍ حميدة؛ كما لم تكنْ مجرَّدَ نصائحَ تساعد على العَيشِ بصورةٍ أفضل في العالم، بل قال أمورًا مثل: "أنا والآبُ [عنى بذلك الله] واحدٌ"، وقال أيضًا، "مَن رآني فَقدْ رأى الآبَ"، وقال جملةً ربَّما تكون الأكثر إدهاشًا: "لا أحَدَ يأتي إلى الآب إلَّا بي".[٢]

هل ترى ما أعنيه؟ لا يقول أشخاصٌ اعتياديُّون أقوالًا كهذه! أنا والله واحد؟ لا يأتي أحدٌ إلى الله إلَّا بي؟ ليست هذه تعاليمَ أخلاقيَّة تحتاج لأن تُقرِّر ما إذا كنتَ ستتبنَّاها في حياتك أم لا، إذ إنَّها تصريحات المسيح وأقواله عمَّا يرى أنَّه الحقّ.

دون شكّ، قد ترفض ما يقولُه تمامًا. لكنْ فكِّر في هذا: ألا ترى أنَّ من الحكمة ألَّا تتسرَّع في قرارك؟ وأليس من المعقول أن تتعرَّف قليلًا إلى

٢) يوحنَّا ١٠: ٣٠؛ ١٤: ٦.

هذا الرجُل قبل أن ترميَ بعيدًا ما قاله عنك؟ وما دمتَ قد تناوَلْتَ هذا الكتاب وبدأت تقرأه، فلأتجاسَرْ وأطلبْ منك ما يلي: امنحْ يسوع فرصة؛ لأنَّك قد تُدرك، بينما تتعلَّم المزيد عنه، أنَّ هناك بضعةَ أسبابٍ جيِّدة لتصديق ما قاله يسوع عن نفسه، وعن الله، وعنك أيضًا.

إلى أين تذهب لتَعرفَ عن المسيح؟

كيف لك إذًا أن تَعرف رجلًا عاش قبل ألفي سنةٍ مضت؟ حتَّى وإنْ بدأتَ من نقطة الإيمان بقيامته من الموت وصعوده إلى السماء، فلن يتسنَّى لك طَرْقُ بابِ السماء والجلوس معه للتحدُّث وتناوُل القهوة. إلى أين تذهب لتعرفَ عن يسوع؟ تشير الكثير من الوثائق التاريخيَّة إلى وجود يسوع وحياته وموته وحتَّى قيامته، وقد تتمكَّن من معرفة بعض الأمور عنه هناك. لكنَّ لغالبيَّة هذه الوثائق مشكلتين على الأقلّ. فمثلًا، كُتبَت أكثرها في وقت مُتأخِّرٍ نوعًا ما، يصل أحيانًا إلى مئات السنين بعد زمن يسوع، حتَّى إنَّها حقًّا لا تُعينُنا كثيرًا لنعرفَ مَن يكون يسوع المسيح فعلًا. وليس ذلك فقط، بل إنَّ أفضل هذه الوثائق لا تُطلعنا غالبًا على الكثير عن المسيح؛ فهي تُعنى بأُمورٍ أخرى، ممَّا يجعلها تذكُرُ المسيحَ أو تُشيرُ إليه فقط، بدل أن تخبرنا بشأنه وتُعطينا أيَّة تفاصيل.

إلَّا أنَّ هناك كنزًا دفينًا واحدًا يمتلئ بالمعلومات عن يسوع المسيح. وهو مصدرٌ مُفصَّل وشخصيٌّ يحكيه شهودُ عِيانٍ خطوةً بخطوةٍ حول ما قاله يسوع وما فعله وما كانه... إنَّه الإنجيل المقدَّس.

لكنِ انتظر لحظة قبل أن تُغلق هذا الكتاب! أعلمُ أنَّ بعض الناس ينفرون حينما يُذكر "الإنجيل" أمامهم؛ لأنَّهم يرون أنَّه"كتابٌ يخصُّ

المسيحيِّين"، لذا يظنُّون أنَّه مُنحازٌ وعديم الجدوى للحصول على معلوماتٍ دقيقة. إنْ كان هذا رأيك، فأقول لك إنَّك مُحقٌّ إلى حدٍّ بعيد في ما تظنُّه؛ فالكتاب المقدَّس هو حقًّا كتابُ المسيحيِّين، ودون أدنى شكٍّ، كان كُتَّاب وثائق العهد الجديد- وهو الجزء الثاني في الكتاب المقدَّس- أُناسًا آمنوا بكلام يسوع، وبأنَّ ما سجَّله العهد القديم كان يتطلَّع إلى مجيء يسوع. لكنَّ هذا لا يعني أنَّه كانت لديهم أجندةٌ خبيثة. فكِّر في الأمر: ماذا كانت أجندتُهم؟ أن يَنالوا الشهرة؟ أن يجنوا المال؟ أن يصيروا زُعماءَ جبابرةً لكنائس ثريَّة؟ يمكنك أن تُخمِّن ذلك، لكن إنْ كان ذلك هو مُرادَهم، فقد آلت خُطَّتهم إلى فشلٍ ذريع. فقد عَلِم معظم كُتَّاب وثائق العهد الجديد أنَّهم قد يُقَتلون من أجل ما قالوه عن يسوع. ورغم ذلك، استمرُّوا بإعلانه جهارًا.

هل فهمتَ القصدَ من هذا كلِّه؟ ما أعنيه أنَّه إنْ كانت غايةُ أحَدٍ ما من كتابة روايةٍ عن أمرٍ ما هو مجرَّد نَيلِ الانتباه أو السُّلطة أو الثروة، فلا بدَّ له أن يتراجعَ عن القصَّة عندما تتصاعدُ وتيرةُ الأحداث وتصلُ إلى حدِّ قطع الرأس. الحالة الوحيدة التي تجعل المرء يلتزم تُجاهَ قصَّةٍ كهذه في مثل تلك الأوضاع هي أنَّ غايةَ المكتوب هي إيصال ما حدث فعلًا. وهذا ما يتوافَر لدينا في الكتاب المقدَّس: مجموعة من روايات شهودِ عيانٍ آمنوا بما قاله المسيح يسوع وكتبوا أسفارَهم بهدفِ إعطاء وصفٍ دقيقٍ عنه وعمَّا قاله وفعله. كيف إذًا تتعرَّف إلى المسيح؟ أفضل وسيلة هي بقراءة هذه الوثائق، أي بقراءة الكتاب المقدَّس.

يؤمن المسيحيُّون مع هذا، بأنَّ الكتاب المقدَّس هو أكثر من مجرَّدِ مجموعةٍ من أفضل المعلومات المتاحة عن المسيح؛ إذ يؤمنون بأنَّه كلمة الله، أي أنَّ الله نفسَه هو مَن قاد الرجال الذين كتبوه ليكتَبوا ما أرادَ هو

نفسُه أن يقولَه، حتَّى يكونَ كلُّ ما كتبوه صحيحًا جملةً وتفصيلًا. وربَّما أدركتَ مُسبَّقًا أنِّي مسيحيٌّ، وأُومن بما قلتُه آنفًا عن الكتاب المقدَّس.

قد يكون ذلك بعيدَ المنال لك لتقتنعَ به، ولا بأس بذلك. فحتَّى لو لم تؤمنْ بأنَّ الكتاب المقدَّس هو كلمة الله، تبقى الوثائق التي يحويها تاريخيَّة بطبيعتها، كتبها ناسٌ أرادوا إيصال تقريرٍ دقيقٍ عن المسيح. فتعامَلْ معها الآن على الأقلِّ على هذا الأساس، واطرحْ أسئلةً وابحث عن إجاباتٍ عنها، واقرأها بأسلوبٍ نقديٍّ كما كنتَ لتفعلَ مع أيَّة وثائقَ تاريخيَّة أُخرى. واسأل نفسك: "هل أجِدُ هذا حقًّا أم لا؟". فكلُّ ما أطلبه منك هو أن تتعاملَ مع هذه الوثائق بعدلٍ، قبل أن ترميَها في صندوقٍ جعلتَه للأمور "الدينيَّة غير النافعة"، حاسبًا إيَّاها من البداية سخيفةً ورجعيَّةً وباطلةً.

لاحظْ أنَّ الذين كتبوا وثائقَ العهد الجديد أشخاصٌ أذكياء. فقد كانوا من سكَّان أعظم إمبراطوريَّة على وجه سطح الأرض آنذاك، بل كان بعضٌ منهم من مواطني تلك الإمبراطوريَّة، وقد قرأوا الفلسفة والأدب ممَّا لا نزال نقرأه حتَّى اليوم في مدارسنا. (في الواقع، إن كُنتَ مثلي، فأقولُ إنَّهم قرأوها بعنايةٍ وإمعانٍ أكثرَ ممَّا فعلنا نحن). فضلًا عن ذلك، فقد عرفَ أولئك الفرقَ ما بين الحقيقة والخيال، وعرفوا الخِداع والضَّلال، وكيف أنَّها تختلف عن التاريخ والحقّ. بل حافظ كُتَّاب العهد الجديد على التفريق ما بين هذه الأمور بصرامةٍ وحذرٍ أكثرَ ممَّا نقومُ به نحن عادةً. وستُدرك بينما تَقرأُ كتاباتهم إيمانَهم بما يقولونه يسوع، وأنَّهم، رغم دهشتهم منه، صدَّقوه وأرادوا أن يؤمنَ به الآخرون أيضًا. فقد كتبوا إذًا راجين أن يقرأ الناس ما قالوه، ليعرفوا مَن هو يسوع المسيح كما عرَفوه هم، وربَّما يُدرك الناسُ أنَّه جديرٌ بالإيمان والثقة.

وهذا تمامًا ما أرجو أن يساعدكم هذا الكتاب على فعله: أن تعرفوا يسوع بواسطة كتابات المسيحيِّين الأوائل. ومع أنَّنا لن نفحص أيًّا من كتابات العهد الجديد صفحةً فصفحة، فإنَّنا سنستخدم جميع هذه المصادر لنتعرَّف إلى يسوع بالطريقة نفسها التي اختبرها أيٌّ من أتباعه: أوَّلًا، بوصفه رجلًا استثنائيًّا أجرى أعمالًا غير متوقَّعة، لكنَّنا سندرك على نحو غامر أنَّ كلمة "استثنائيّ" لا توفيه حقَّه في الوصف. ها إنَّ أمامنا رجلًا ادَّعى أنَّه نبيٌّ ومخلِّصٌ وملكٌ، بل ادَّعى أيضًا أنَّه الله نفسه- رجلًا كان سيتبرَّر مستمعوه من ذنب إعلانه مخبولًا أو محتالًا، لو أنَّه لم يستمرَّ بأعمالٍ تشهد لما ادَّعاه! هذا إلى جانب الطريقة غير المتوقَّعة التي عامَل بها الناس، فقد تعامَلَ بتعاطُفٍ مع المنبوذين، وبسخطٍ مع ذوي السُّلطة، وبمحبَّةٍ مع المكروهين. ومع أنَّ يسوع ادَّعى ما ادَّعاه، لم يمارسْ حقوقه بكَونه ملكًا وإلهًا، فرفضَ مثلًا المُلكَ الذي عُرض عليه، وأَخبَرَ تلاميذه ألَّا يخبروا أحدًا بحقيقته، بل تحدَّث بأنَّ السُّلطات ستصلبه حاسبةً إيَّاه مجرمًا. ورغم كلِّ هذا، فقد اتَّضحَ من كلامه أنَّ ذلك كلَّه كان يسير منذ البداية بحسب خُطَّته بطريقةٍ ما. لذا بينما شاهده أتباعُه وسمعوه، بدأوا يُصدِّقون شيئًا فشيئًا أنَّه أكثر من مجرَّد رجلٍ استثنائيّ، أو مجرَّد مُعلِّمٍ، أو نبيٍّ، أو حتَّى ثائر، بل إنَّه أكثر من مجرَّد ملك. لقد قال له أحدُهم في إحدى الليالي: "أنت هو المسيح، ابن الله الحيّ".[٣]

أهمُّ سؤالٍ ستطرحه في حياتك

مَن هو يسوع المسيح إذًا؟ كثيرًا ما كان هذا هو السؤال الأبرز. فمن اللحظة التي ادَّعى فيها رعاةٌ أنَّهم رأوا ملائكة أخبروهم بميلاده، إلى

٣) مرقس ١٦: ١٦.

اليوم الذي أَدهش فيه تلاميذه بتهدئته البحر الهائج، إلى اللحظة التي أظلمت فيها الشمس يوم موته، كان الجميع يُترَك بعدها مُتسائلًا: "من هو هذا؟".

قد تكون لجأت إلى هذا الكتاب ولك معرفةٌ قليلة عن يسوع، وقد تعرفُ عنه بعضَ الأمور. لكنِّي أرجو في كِلتا الحالتَين أن تتعرَّف إلى يسوع بطريقة أفضل بينما تقرأ عن حياته، ونستكشفها معًا، وأرجو ألَّا يكون ذلك مثل معرفة موضوعٍ أكاديميّ، أو شخصيَّة دينيَّة، بل بوصفه معرفة رجلٍ عَرفه المسيحيُّون الأوائل بوصفه صديقًا. كما أرجو أيضًا أن ترى ما أعجبَهم به، وأن تُدرِكَ بصورةٍ أفضل السببَ الذي يجعل الملايين يقولون: "هذا مَن نأتمنه على أبديَّتنا".

وفضلًا عن هذا كلِّه، أرجو أن يتحدَّاك هذا الكتاب لتأخذَ أقوال يسوع على محمَل الجِدّ. فإنْ كان المسيح قد قال إنَّه إلهٌ، فليس أمام أيٍّ منَّا سِوى خِيارَين فقط. أليس كذلك؟ إمَّا أن نرفض هذا الإدِّعاء وإمَّا أن نقبله. ما لا يمكنك فعله، على الأقلِّ ليس مدَّة طويلة، هو أن تؤجِّل الحُكم وتراقب ما سيحصل في النهاية. صرَّح يسوع ببعض الأمور العجيبة عن نفسه، وعنك أيضًا. ولذلك تأثير مفصليٌّ في حياتك، سواء أعجبك الأمر أم لم يُعجبك. لذا آمل أن يتحدَّاك هذا الكتاب لتُفكِّر مليًّا في يسوع، وأن يساعدك على إيضاح هذه التصريحات والنتائج، ويقودَك لتُقدِّمَ جوابَك النهائيَّ عن السؤال: مَن هو يسوع المسيح؟

فهذا بالفعل أهمُّ سؤالٍ ستطرحه يومًا.

الفصل ٢

شخصٌ استثنائيٌّ وأكثر

كانت الساعة الثامنة صباحًا إلَّا عشر دقائق من أحد أيَّام الجمعة، حينما صعد رجلٌ عاديُّ المنظر درجًا كهربائيًّا لإحدى محطَّات الأنفاق في العاصمة واشنطن دي. سي، واستند إلى أحد الجدران، وفَتَح صندوق كمانٍ كان بحوزته، ثمَّ أخرجَ آلتَه التي بدا أنَّها عتيقة، حتَّى إنَّها كانت مهترئةً من الوراء فظَهَرَ الخشبُ من بعض الحواف، وأدار الصندوقَ ليَقبَل أيَّ تبرُّع قد يضعُه المارَّة، وراح يعزف.

أخذ الرجل يعزف مجموعةً مختارة من الموسيقا الكلاسيكيَّة مدَّة خمسٍ وأربعين دقيقة جرى فيها مقابلَه أكثر من ألفِ شخصٍ مُسرعين. نظرَ إليه شخصٌ أو اثنان إعجابًا، لكنْ لم يحطْ به أيُّ حشد. ثمَّ أدرك رجلٌ أنَّ أمامه ثلاث دقائقَ قبلَ التوجُّه إلى عمله، فاستند إلى أحد الأعمدة وأصغى- لثلاث دقائق فقط. لكنَّ أغلب الناس انشغلوا بأمورهم ببساطة: يقرأون الصُّحُف، أو يستمعون إلى الآيبود، مسرعين إلى الموعد التالي الذي ذكَّرتهم به شاشات أجهزتهم الإلكترونيَّة.

وبالمناسبة، كانت الموسيقا جميلةً وانسابَتْ بإبداعٍ رائع متناغمةً بدقَّة متناهية في أرجاء الممرّ، وجاعلةً أُناسًا يفكِّرون لاحقًا أنَّهم انتبَهوا فعلًا- ولو

لِلُحَيظات- لما كان يُعزَف. لقد كان ذلك حقًّا أمرٌ مميَّز. غير أنَّ العازفَ لم يبدُ مميَّزًا؛ إذ كان يرتدي قميصًا أسودَ طويل الأكمام، وبنطالًا أسودَ أيضًا، وقبَّعةَ فريق "واشنطن ناشونالز" (Washington Nationals) للبايسبول. لكنَّ المقصودَ هو أنَّك لو استوقفْتَ نفسَك لتستمعَ، فستُلاحِظُ أنَّه أكثر من مجرَّد عازفِ كمانٍ يعزفُ من أجل بعضَ الفكَّة في جيوب المارَّة. فهذا الموسيقيُّ كان مُدهشًا. حيث علَّق رجلٌ لاحقًا بالقَول إنَّ: "أغلب العازفين يعزفون الموسيقا، لكنَّهم لا يشعرون بها، أمَّا هذا الرجل فقد كان يَشعُر بها. كان الرجل يتحرَّك ويتحرَّك مع الألحان". وأضافَ قائلًا إنَّك لو استمعتَ قليلًا "لأمكنَك أن تُدرك في غضونِ ثانية أنَّ الرجل كان مُبدعًا".[1]

وبالفعل أمكنَك ذلك. فهذا لم يكن مجرَّدَ عازفِ كمانٍ كالعازفين الآخرين في محطَّة الأنفاق صباح يوم الجمعة، ولم يكن حتَّى مجرَّد عازفٍ استثنائيٍّ آخر، بل كان"جوشوا بِل" (Joshua Bill)؛ عازف الكمان المشهور عالميًّا ذي التسعة والثلاثين عامًا، وهو عادةً ما يعزفُ في أشهرِ مسارح الموسيقا العالميَّة، أمامَ جماهيرَ تحترمُه حتَّى إنَّهم يمسكون أنفسهم عن السُّعال إلى أن يتوقَّفَ عن العزف. وليس ذلك فحسب، بل كان بِل حينها يعزفُ بعض أفخر الموسيقا الباروكيَّة، على كمانٍ عتيقٍ عُمره ثلاث مئة سنة، ويُقدَّر ثمنه بنحو ثلاثة ملايين ونصف المليون دولار!

كان المشهَدُ كلُّه جميلًا: بعض أجمل الموسيقا المؤلَّفة تُعزف على إحدى أكثر الآلات إتقانًا من جهةِ الصُّنع، يعزفُها أحد أمهر الموسيقيِّين الموجودين على قَيد الحياة. لكنْ رغم هذا كلِّه، كان لا بدَّ أن تتوقَّف وتُلقيَ انتباهَك لكي ترى الجمال الذي حواه المشهد.

1) Gene Weingarten, "Pearls Before Breakfast," The Washington Post, April 2007.

أكثر من استثنائيّ

ينطبق ذلك على أمورٍ كثيرةٍ في حياتنا، أليس كذلك؟ ففي دوَّامة العمل والعائلة والأصدقاء والفواتير والمتعة، كثيرًا ما ينتهي المطاف بأمورٍ كالجمال والبهاء خارج أبواب عقولنا، إذ ليس لدينا مُتَّسعٌ من الوقت لتقديرها، والتوقُّف قليلًا لإعارتها بعضَ الانتباه؛ فنحن مشغولون بما هو طارئ.

ينطبق هذا على ما يختصُّ بيسوع المسيح؛ فأكثَرُنا- وإنْ كنَّا نعرفُه سابقًا- نعرفه معرفةً سطحيَّة. وقد نعرفُ بعضَ القصص المشهورة عنه أو بعض المقولات المعروفة المنسوبة إليه. فدون أدنى شكٍّ، كان لدى يسوع المسيح في أيَّامه ما أَسَرَ انتباهَ الجُموع- كان حقًّا رجلًا استثنائيًّا. لكنْ إنْ كنتَ تريدُ فعلًا أن تعرفَ السيِّدَ المسيح وتفهَمَه وتستَوعبَ قيمتَه الحقيقيَّة، فإنَّك تحتاج لأن تَنظُر بإمعانٍ أعمَق. عليك أن تتخطَّى المُناظَراتِ المعتادة والخُطَبَ المتداولة والقصصَ المتناقَلة عنه وتخدشَ السطح لنتظرَ إلى ما تحته. فالأمرُ سيكون مأساويًّا- كما حدث مع عازف الكمان في محطَّة قطار الأنفاق- لو حسبتَ يسوعَ مجرَّد رجلٍ استثنائيٍّ آخر.

لنكُنْ صريحين! حتَّى لو لم تكن متديِّنًا أو مقتنعًا بفكرة أنَّ المسيح هو ابن الله ومخلِّص العالم، لا بدَّ أن تعترفَ أنَّه شخصٌ يلفتُ الانتباه نوعًا ما. فمرَّةً بعد مرَّة، أجرى يسوعُ أعمالًا أَسَرَتْ أنظارَ معاصريه، وقال أقوالًا أدهشَتْهم بحِكْمتِه، بل واجَهَهم بأساليبَ تركَتْهم يتخبَّطون محاوِلين استيعابَ ما حدث.

قد يسهُلُ من النظرة الأولى القَولُ إنَّ حالَ يسوع المسيح حالُ غيره من مئات المعلِّمين الدينيِّين الذين ظهروا برزوا ثمَّ سقطوا وتواروا في أورشليم

(القُدس) نحو القرن الأوَّل الميلاديّ؛ إذ إنَّ صيتَ التعليم الدينيِّ آنذاك لم يكن كما هو عليه اليوم. ومع أنَّ الناس كانوا يستَمِعون إلى هذه التعاليم لحيازةِ بصيرةٍ تقودُهم إلى فهمٍ أفضل للكتب المقدَّسة وتعلُّم كيفيَّة العيش ببرٍّ أكثر، فإنَّ بعضهم كان يستَمِع لمجرَّد التمتُّع اللَّحظيّ. فالأمرُ يُشبِهُ عدمَ توافُر الأفلام السينمائيَّة والتلفاز والهواتف الذكيَّة. ماذا كنتَ لتَفْعَل حينها من أجل التَّسلية؟ لا بدَّ لك في زمانهم من التحضير لنزهةٍ تستمع فيها لأحد المعلِّمين!

قد يبدو الأمر غريبًا لنا للوهلة الأولى، لكنَّه يساعدنا على فَهْم تفرُّد يسوع في كونه معلِّمًا جيِّدًا؛ فقد استمعَ يهودُ القرن الميلاديِّ الأوَّل للكثير من المعلِّمين، وأبدوا فيهم آراءً مُصاغةً كما يصيغُ الناسُ آراءهم بنجوم السينما اليوم. وبكلمات أُخرى، ليس من السَّهل إثارة إعجاب الناس آنذاك. ممَّا يجعَلُ الأمرَ يستحقُّ الإمعان في ما كان يحدثُ حين يَصِفُ الكتاب المقدَّس مرَّة تلو الأُخرى الناس بأنَّهم "بُهتوا" بتعاليم المسيح.

يَرِدُ هذا الوصف في الروايات الأربع من الكتاب المقدَّس عن حياة يسوع المسيح، أو ما يُعرف بالبشائر أو الأناجيل[٢]، ما لا يقلُّ عن عشر مرَّات.[٣] أقتبسُ منها ما ورد عن متَّى، حيث كان يسوع قد أنهى للتوِّ تعليمه من على سفح أحد الجبال: "وَعِندَما أنهَى يَسُوعُ حَدِيثَه هَذا، ذُهِلَ النَّاسُ مِنْ تَعلِيمِهِ، لِأَنَّهُ كانَ يُعَلِّمُهم بِسُلطانٍ وَلَيسَ كَمُعلِّمي الشَّريعة"[٤]. لا تدَعْ هذا يفوتك! كانت وظيفةُ مُعلِّمي الشريعة التعليمَ

٢) "الإنجيل" كلمة يونانيَّة تعني "الخبر السارّ"، ويُمكن أن تُطلق على كتاب العهد الجديد كاملًا (الإنجيل)، أو على كتابات متَّى ومرقس ولوقا ويوحنَّا عن يسوع المسيح، وهي مضمَّنةٌ في العهد الجديد (المترجم).

٣) متَّى ٧: ٢٨، ١٣: ٥٤، ١٩: ٢٥، ٢٢: ٣٣؛ مرقس ١: ٢٢، ٦: ٢، ٧: ٣٧، ١٠: ٢٦، ١١: ١٨؛ لوقا ٤: ٣٢.

٤) متَّى ٧: ٢٨-٢٩.

بسُلطان، لكنَّ الناسَ رأوا أنَّهم لم يُجاروا يسوع ولو قليلًا بتعليمه.

وفي أحيانٍ أُخرى، وُصفت المشاعر بعباراتٍ مختلفة. لاحظ ردَّة الفعل التي نالها المسيح في أوَّلِ عِظَةٍ ألقاها في بلدته حيثُ تَرعرَع: "كانَ الجَميعُ يَمدَحونَه، مُندَهِشينَ من الكَلِماتِ الجَميلَة التي تَخرُجُ من فَمِه".[٥]

وكانت هذه الحالُ أيضًا في قرية صغيرة تُشتَهرُ بصَيد الأسماك، تُدعى كَفرناحوم: "فَذُهِلوا من تَعليمِه، لِأَنَّهُ عَلَّمَهُم كَمَنْ لَه سُلْطانٌ".[٦]

ومُجدَّدًا في بلدته: "فَاندَهَشَ كَثيرونَ عِندَما سَمِعوه، وقالوا: «من أينَ جاءَ هَذا الرَّجُلُ بِكلِّ هَذا؟ وَما هَذِه الحِكْمَةُ المعطاةُ له، وما هَذه المُعجِزاتُ الَّتي يَصنَعُها؟»".[٧]

بعد ذلك في الحدث الأكبر في هيكل القُدس: "وَسَمِعَ كِبارُ الكَهَنةِ وَمُعلِّمو الشَّريعةِ بِما حَدَثَ... لَكنَّهُم كانوا يَخافونَ منه لأنَّ تَعليمَه كانَ يُدهِشُ الجَميعَ".[٨]

كانت ردود الفعل نحو يسوع المسيح مِرارًا وتَكرارًا تتَّسِم بشيء من الدهشة وعدم التصديق[٩]؛ ففي ثقافةٍ كانت تنظر إلى التعليم بوصفه نوعًا من أساليب جَلْبِ البَهجةِ إلى عامَّة الشعب، نالَ يسوع تقييماتٍ استثنائيَّة!

---

٥) لوقا ٤: ٢٢.

٦) مرقس ١: ٢٢.

٧) مرقس ٦: ٢.

٨) مرقس ١١: ١٨.

٩) اقرأ أيضًا متَّى ١٣: ٥٤؛ ٢٢: ٢٢، ٣٣.

لماذا هذا الذُّهول؟

لكنْ لماذا؟ ما الذي كان مُميَّزًا ولافتًا جدًّا في تعاليم المسيح؟ جزءٌ من الإجابة يكْمن في تلك اللحظات التي كان الناس يتحدَّونه فيها ويطرحون عليه أسئلةً، وكان يُبرهن لهم مدى حكمته وبصيرته. إذ كان ببساطةٍ لا يسمح لهم بإيقاعه في فِخاخهم اللفظيَّة والمنطقيَّة، بل كان حتَّى يقلبُ الموازين على الشخص الذي بدأ التحدِّي. فكان ليس فقط يربحُ الجَدَل، بل كان أيضًا يربَحُ بطريقةٍ تتحدَّى روحيًّا جميعَ المستمعين. فلأستعرضْ وإيَّاكَ إحدى هذه اللحظات.

يَرِدُ في سفر متَّى موقفٌ كان فيه يسوعُ يُعلِّم في الهيكل، فاقترَبَتْ إليه مجموعةٌ من القادة اليهود ليتحدَّوه. غير أنَّ هذا اللقاءَ لم يكُنْ عَرضيًّا؛ إذ سبق أن خطَّطَ هؤلاء القادة كلَّ مجرياته، حتَّى إنَّ الرواية تبدأ الحديث بأنَّ الفَرِّيسيِّين "اجتَمَعوا لِيتَشاوَروا كيفَ يُمكِنُهم أنْ يَصْطادوا يَسوعَ بِشَيءٍ يَقوله". أرادوا أيضًا أن يكونَ ذلك علنًا؛ فساروا نحو المسيح بينما كان يُعلِّم في الهيكل، وربَّما تدافعوا وسطَ الحشود وقاطَعوه بينما يتكلَّم.

استَهلُّوا حديثَهم بتملُّقٍ: "يا مُعلِّم، نَحنُ نَعلَمُ أنَّكَ صادقٌ وَتُعلِّمُ طَريقَ الله بِكُلِّ صِدق. وأنَّكَ لا تُجامِلُ أحَدًا، لأنَّكَ لا تَنظُرُ إلى مَقاماتِ النَّاس". يمكنك أن ترى ما يحاول هؤلاء فعله هنا: يحاولون إجبارَ يسوعَ على الإجابة عن سؤالهم بالتَّلميح إلى أنَّه مخادعٌ ومحتالٌ إنْ لم يفعل ذلك.

وبعد أن هيَّأوا الجوَّ سألوه: "أخبِرنا بِرأيكَ، أيَجوزُ أنْ تُدفَعَ الضَّرائِبُ لِلقَيصَرِ أمْ لا؟".[١٠]

---

١٠) متَّى ٢٢: ١٥-١٧.

لا بدَّ أنَّ السؤالَ تطلَّب بعضَ الوقت والتخطيط؛ فهو محبوكٌ بدقَّة. والقصد منه هو مراوغة المسيح لإنهاء تأثيره في الجموع بطريقةٍ أو بأُخرى، ولربَّما حتَّى تعريضه للاعتقال. والكيفيَّة كالآتي: كان رأيُ أغلبِ الفَرِّيسيِّين الذي علَّموه للشعب في تلك الأيَّام ينُصُّ على أنَّ إبداء الكرامة للحكومة الأجنبيَّة، بما فيه دفع الضرائب، هو إثم. كانوا يعتقدون أنَّ ذلك يُهين الله كذلك. فكِّرْ في الأمر: كيف أرادَ الفَرِّيسيُّون ليسوعَ أن يُجيبَ عن السؤال؟ هل بتأييدهم عَلَنًا بأنَّ دَفْعَ الضرائبِ أمرٌ مُحرَّمٌ ومُهين لله أم لا؟

الحقيقة هي أنَّهم لم يهتمُّوا بجوابه؛ إذْ ظنُّوا أنَّهم أوقَعوا به في كلتا الحالتَين. فإذا أجاب المسيح قائلًا: "أجل، يجوز دَفْعُ الضَّرائب لقَيصر"، كان الجمعُ سيغضبُ ويفقدُ المسيح تأثيره. لكنْ إذا أجاب بالقَول: "لا، لا تَدفعوا الضرائب له"، فكان سيخاطرُ بالتَّعرُّض لسَخَط الرومان جرَّاء التحريض على الفتنة عَلَنًا، وربَّما كان سيُعتقَل، ممَّا كان سيُنهي تأثيره أيضًا. في كلتا الحالتين، هذا ما أراده الفريسيُّون: نهاية يسوع بوصفه قوَّةً ثقافيَّة مؤثِّرة. لكنَّ ما حدث هو أنَّ يسوع تملَّصَ من الفخِّ وقَلَبَ السؤالَ رأسًا على عَقِب وترك سائِليه في حَيرةٍ واندهاش.

ما حدث هو أنَّ يسوع المسيح طلبَ قائلًا: "أَرُوني العُملَةَ التي تَستَخدِمونَها"، وبعدما أحضروا إليه دينارًا، نظرَ إليه يسوع ورفعَه عاليًا على مرأى من الجمع وطرحَ عليهم سؤالًا سهَّل الإجابة: "لِمَنْ هذا الرَّسمُ وهذا الاسمُ المنقوشَين على الدِّينار؟"، فقالوا: "إنَّهُما لِلقَيصَر". وقد كانوا مُحقِّين؛ إذ كان منقوشًا على تلك العُملة وجهُ طيباريوس قيصر واسمُه، صاحب دار صكِّ هذه النقود، وهي تخصُّه هو. ومن الواضح أنَّ الشعبَ اليهوديَّ كان لا يمانع استخدامَ هذه النقود لمنفعته الشخصيَّة. إذًا، ما المانع

ألَّا يُعيدوا إلى قَيصرَ ما هو مُلكٌ له؟ لذا قال لهم يسوع: "إذًا أعطُوا القَيصَرَ ما يَخُصُّهُ، وَأعطُوا اللهَ ما يَخُصُّه".[١١]

قد يبدو لنا الجواب مباشرًا وبسيطًا، أليس كذلك؟ إنَّها نقود قيصر؛ لذا ادفعوا الضرائب. لكنَّ الكتاب المُقدَّس يقول إنَّ الناس اندهشوا لدى سماعِهم الإجابة. لماذا؟ كان ذلك أوَّلًا لأنَّ المسيح كان للتوِّ قد أعاد تعريفَ الأسلوب الذي ينبغي فيه أن ينظرَ اليهود إلى علاقتهم بالرُّومان، كما أضعفَ في الوقت ذاته تعاليم الفَرِّيسيِّين؛ فمهما كانت الزواية التي تنظر منها إلى الموضوع، لم يكن أن تُعيدَ إلى قيصر ما كان له أصلًا مُهينًا لله بأيَّة طريقة.

لكنْ كان هناك أيضًا بُعدٌ آخر لما قاله يسوع، وهو ما أصابَ الناسَ بالدَّهشة الحقيقيَّة. أعِدِ التَّفكيرَ في السؤال الذي طرحَه المسيح على الجَمع حينما أراهم الدِّينار. عندما قال يسوع: "لِمَنْ هذا الرَّسمُ...على الدِّينارِ؟"، وأجابوه أنَّه لقيصر، كان ذلك البرهانَ الذي اعتمده للمُلكيَّة. كانت صورةُ قَيصر على العُملة، لذا فهي مُلكه، لذا عليهم أن يُعطوا لقيصر ما يخصُّ قيصر، لكن أيضًا- وهنا نجد المِفتاح- أن يُعطوا لله ما يخصُّ الله. أيْ أنَّهم ينبغي أن يُعطوا لله ما يحمل صورتَه الموسومة عليه. وما المقصود بهذا؟

كلُّ الجمع عَلِموا ما ذاك فورًا. كان المسيح يُشير إلى سفر التكوين ١: ٢٦-٢٧، حينما أعلنَ الله عن مشيئته في خَلق البشريَّة، فقال: "لِنَخلِقِ النَّاسَ على صُورَتنا وكَمِثالِنا...فخلَقَ الله النَّاسَ على صُورَتِه. على صورَتِه خَلَقَهُم ذَكَرًا وَأُنثى". أترى المقصود؟ كان يسوع يخاطبُ الناسَ بما هو

١١) متَّى ٢٢: ١٩-٢١.

أعمَقُ من فلسفةٍ سياسيَّة. كان يقول إنَّه كما تحمل العملةُ صورةَ قيصر، كذلك يعكس جوهرُ كيانِنا صِفات الله؛ لذا نحنُ خاصَّته ومُلكٌ له! أجل، يُعطى شيءٌ من الكرامة لقيصر حينما يعترفون بصورته على النَّقد ويُعيدون إليه ما يخصُّه، لكنَّ كلَّ الكرامة تُرفَع لله حينما نعترف نحن بصفاته التي نحملُها ونعطيه ذواتنا، حينما نعطيه قلوبَنا ونفوسَنا وفِكرَنا وقوَّتنا.

أتمنَّى أن تُدرك ما كان يقولُه يسوع لمستمعيه. فالأهمُّ من أيِّ جَدَلٍ فلسفيٍّ وسياسيٍّ أو علاقة الأفراد ببلدٍ آخر هو السؤال الذي يخاطِبُ علاقةَ الأفراد بالله. كان المسيح يُعلِّم أنَّنا جميعًا خليقة الله، وأنَّك أنت فعلًا خليقة الله. خلقك الله على صورته ومثاله، ولذا أنت مُلكه ويمكنُه أن يطلبَ منك تقديمَ حِسابِك. فكان ما قالَه يسوعُ المسيح يحثُّك على أن تُعطيَ لله ما يخصُّه: ليس أقلَّ من حياتك كلِّها.

لم يقُم أحدٌ بأمرٍ مماثل

لا عجب إذًا أنَّ الناس دُهِشوا من تعاليم المسيح. ففي عباراتٍ قليلة تمكَّن من الإطاحة بمَن تحدَّوه، وأعادَ تعريفَ النظرة السائدةِ إلى المعتقَدِ السياسيِّ المعاصر آنذاك. وفي الوقت ذاته، تمكَّنَ من الغَوصِ في عُمقِ إحدى أكبرِ حقائق الوجود البشريِّ جوهريَّةً. كانت لتَعليمٍ كهذا القدرةُ على اجتِذابِ حُشودٍ بأكمَلِها!

من جهةٍ أخرى، كانَتِ المعجزات حاضرةً أيضًا؛ إذ رأى آلافُ الناس بأنفسهم المسيحَ يُجري أعمالًا لا يمكن للبشر القيام بها: شفى السُّقماء، وحوَّلَ الماء إلى عصير عنبٍ فاخر، وأقامَ العُرجَ بكلمة، وأعادَ الرُّشدَ إلى مَن حُسِبوا مجانين دون رجاء، حتَّى إنَّه أقامَ الموتى معيدًا إليهم الحياة.

لم يكن الناس آنذاك سُذَّجًا في التعامُل مع هذه الأمور. أجل، هم عاشوا قبل زمنٍ بعيد، لكنَّ هذا لا يعني أنَّهم كانوا رَجعيِّين أو أغبياء. لم يكن الناس يدَّعون حصولَ المعجزات كلَّ يومٍ، لذا نجدُ الكتاب المقدَّس يخبرنا نصًّا تلوَ الآخر عن أُناسٍ اعترتهم الدَّهشة لدى وقوع هذه المعجزات. كان الحشود مدهوشين لدى رؤية المسيح يقوم بهذه الأمور! وفضلًا عن هذا، كان يهود القرن الأوَّل قد صاروا بارِعين في تمييز السَّحَرةِ والدجَّالين؛ لأنَّ كثيرين حاوَلوا إشهارَ أنفسهم بوصفهم معلِّمين دينيِّين. كان اليهود آنذاك قد تمكَّنوا من فَضْح خِداع السَّحرة مرارًا عدَّة، والضَّحك هازئين بكلِّ رجلٍ يحاول إبهارهم بخدعةٍ بصريَّةٍ رخيصة يدَّعي أنَّها "معجزة". لذا فآخر ما يمكنك أن تظنَّه هو أنَّهم سُذَّج.

غير أنَّ يسوع المسيح أدهشَهم، فكان خلافًا للآخرين إنسانًا استثنائيًّا. كان الآخرون يُخرِجون أرانب من القبَّعات، أمَّا المسيح فقد شفى المئات، حتَّى إنَّه تعبَ جسديًّا ونام. أخذ يسوع سمكتَين وخمسةَ أرغفة خبز وأعدَّ وجبةً لخمسة آلافِ رجلٍ صاروا بعد ذلك شهودًا لذلك الحدث. وأيضًا وقفَ المسيح إلى جانب رجلٍ كسيح لسنوات وأمره بالوُقوف والمشي، وهذا ما كان فعلًا. وقف يسوع كذلك في مقدَّم قاربٍ وأمرَ البحرَ الهائج بالهدوء- وهذا ما حدث. وقف المسيح أيضًا أمام قبر رجلٍ كان قد تُوفِّي قبل أربعة أيَّامٍ ودعاه ليخرجَ من القبر، فسمعَ الرجُلُ ذلك، وقام ومشى خارجًا من القبر.[١٢]

لم يقم أحدٌ بكلِّ هذا قَطّ.

وكان الناس مدهوشين.

---

١٢) متَّى ٨: ٢٤-٢٧، ٩: ٦-٧، ١٤: ١٣-٢١؛ يوحنَّا ١١: ٤٣.

هذا كلُّه لسبب

ومع هذا كلِّه، هناك المزيد. فإنْ أعرْتَ انتباهَك بحقّ؛ وتجاوَزْتَ الدَّهشة الحاصلة، ورحْتَ تسأل عمَّا هو أعمق وعن السبب وراء إجراء المسيح كلَّ هذه الأمور، ستجد أنَّ كلَّ هذا كان لسببٍ معيَّن.

الحقيقة هي أنَّ المسيح كان- في كلِّ معجزةٍ أجراها وفي كلِّ عظةٍ ألقاها- يصرِّح ويدعَمُ تصريحاتٍ أدلى بها عن نفسه، ولم يسبِقْ لإنسانٍ آخرَ أن أدلى بها. خُذ مثلًا الموعِظة على الجبل في متَّى ٥-٧، وهي تُعدُّ أشهَرَ عِظات المسيح. قد تبدو هذه العِظة أوَّلَ وَهلةٍ درسًا أخلاقيًّا لا يختلف عن سواه من جهة الحضِّ على العمل الصالح وتجنُّب السيِّئات: لا تَحلِفوا، ولا تَزْنوا، ولا تَشْتَهوا، ولا تَغْضبوا. لكنْ إنْ أمعنْتَ في النظر جيِّدًا ستجدُ أنَّ "كيفيَّة التصرُّف" ليسَتِ البتَّة الهدفَ الرئيسيَّ من العِظة، بل كان الهدفُ هو ادِّعاءً جريئًا من المسيح بامتلاكه الحقَّ بتفسير الشَّريعةِ التي أعطاهم إيَّاها الله للنبيِّ موسى، وأنَّ له الحقَّ في إعطاء معناها وسبب وجودها أصلًا! لذا نجدُ المسيح يقولُ مرَّة تلوَ مرَّة في هذه الموعِظة: "سَمِعْتُمْ أنَّه قِيلَ...أمَّا أنا فَأقولُ لَكُم..."[١٣] وبالتشديد على الضمير أنا؛ يُقرُّ يسوعُ إقرارًا جسورًا بأنَّه المشرِّع صاحب الأحقيَّة لبني إسرائيل. وفضلًا عن هذا، لاحظ أين أطلقَ هذا الإعلان: أطلقَه في أعلى جبلٍ، ممَّا كان سيُعيدُ إلى ذاكرة كلِّ يهوديٍّ حينها لمَّا أعطى المشرِّعُ العظيم الله شعبَه شريعةَ العهد القديم بمخاطبته إيَّاهم من أعلى جبلٍ! ألاحظت المقصود؟ كان يسوعُ يَنسِب إلى نفسه الحقَّ بسلطةٍ أخَّاذة لا يجرؤُ أحدٌ على المطالَبة بها.

---

١٣) متَّى ٥: ٢١-٤٤.

علاوةً على ذلك، فلننظُرْ إلى ما قالَه لمرثا أمامَ قبرِ أخيها الميِّت: "سَيَقُومُ أخوكِ مِنَ الموت". وعلى ما يبدو من إجابتها، كانت مرثا شاكرةً لهذا التَّذكير: "أنا أعرِفُ أنَّه سَيَقومُ من الموتِ في القِيامة، في اليَوم الأخير". وبكلماتٍ أُخرى: نعم، نعم، أعرِف. أشكرك على تعاطفك معي. هذه تعزيةٌ عظيمة لي. لكنَّها لم تدركْ ما قصده يسوع المسيح آنذاك. ربَّما كانت لتُصدمَ جدًّا إنْ أخبرَها يسوع مباشرةً: لا، أقصد أنَّه سيقوم بعدَ دقائق قليلة، حينما آمره بذلك. لكنَّ ما قاله كان أكثرَ جهارًا: "أنا هُوَ القِيامَةُ وَالحَياةُ".[١٤] لا تمضِ قُدُمًا ويَفُتْك هذا! لم يكُنْ الردُّ: يمكنني إعطاء الحياة. بل كان: أنا هو الحياة!

لنَكُنْ صادقين! أيُّ رجلٍ مَن يقول أمورًا كهذه؟ أيُّ رجلٍ مَن يقول له صاحبه بإجلالٍ: "أنتَ هُوَ المَسِيحُ، ابْنُ اللهِ الحَيّ"، فيجيبه مؤيِّدًا بأنَّ الله هو مَن كشفَ له هذه الحقيقة؟ أيُّ رجلٍ مَن يسأله قادة الأُمَّة: "أُناشِدُكَ بِاسْمِ اللهِ الحَيِّ أنْ تُخبِرنا إنْ كُنتَ أنتَ المسيحَ ابْنَ الله"، فيجيبهم بقوله: "نَعَم أنا هُو كَما قُلْتَ. وَأقُولُ لَكُمْ: منَ اليَومِ فَصاعِدًا، سَتَرَونَ ابْنَ الإنسانِ جالِسًا عَنْ يَمِينِ عَرْشِ اللهِ، وَآتِيًا على سُحُبِ السَّماء".[١٥]

دون شكّ، ليسَ رجلًا عاديًّا، وليس رجلًا يريد التميُّز بصفةِ معلِّمٍ عظيم، أو إنسانًا يطلبُ التكريمَ بوصفه صالحًا، كما ليس إنسانًا يسعى لأنْ يذكِّرَ بأنَّه فيلسوفٌ مؤثِّر. بل مَن يقولُ عن نفسه هذه الصِّيَغ ينسبُ إلى نفسه أمرًا أكثر بهاءً وعَظَمةً وعُمقًا من كلِّ ما ذُكِر توًّا. وهذا بالتَّحديد ما قام به يسوعُ، على الأقلِّ لمن أعاروه الانتباه.

كان يسوعُ يصرِّح بكَونه ملك اليهود، والبشريَّة جمعاء.

---

١٤) اقرأ يوحنَّا ١١: ٢٣-٢٥.

١٥) اقرأ متَّى ١٦: ١٦-١٧، ٢٦: ٦٣-٦٤.

الفصل ٣

ملكُ إسرائيلَ وملكُ الملوك

تذمَّر الملك هنري الرابع في كتابات وليَم شكسبير (عام ١٥٩٧م) حول واجباته الملَكيَّة قائلًا برثاء: "ترى كم ألفًا من أفقر رعاياي نائمون في هذه الساعة؟"[١]، كما تعجَّب عن السبب الذي يجعَلُ النومَ يفضِّل السُّكنى في أكواخ الفُقَراء الآيِلَة للسُّقوط على السُّكنى في قصور الملك، وتساءَلَ كيف يمكن أن يقدِّم النَّومُ عطيَّةَ الراحة لفتى البحر المبلَّل الذي تتقاذفُه الأمواجُ من ناحيةٍ إلى أُخرى وهو ممدَّد في السَّفينة، على أن يقدِّمها للملك في مكان راحتِه الساكن؛ فيصرخ مجدَّدًا: "ما أشقى الرأسَ الذي يلبس التاج!".[٢]

مشهدٌ أخَّاذ يصفه شكسبير إذ يُظهِرُ سخريةً عميقة. فالملوك ينبغي أن يحظَوا بكلِّ شيء؛ فهُم أغنياءٌ وذوو سلطة، ولديهم جيوشٌ تحميهم وقصورٌ تأويهم وخدَمٌ يلبُّون أهواءهم. مَن لا يريد كلَّ هذا؟ لكن إن كانت لك درايةٌ بالتَّاريخ، فستَعرفُ أنَّ الملك هنري كان محقًّا. فالملكيَّة لا تحظى دائمًا بحياةٍ من التَّرف والرخاء المتواصل، إذ لا بدَّ أن تحملَ معها شيئًا من

١) وليَم شكسبير، الملك هنري الرابع، الجزء الثاني، الفصل الثالث، المشهد الأوَّل.

٢) المرجع السابق نفسه.

القلق والخوف، بل حتَّى الرُّهاب أحيانًا. فالذي نالَ التاج، يحتاجُ لاحقًا لأن يحافظَ عليه، وقد أدرك عددٌ من الملوك عبر التاريخ صعوبةَ هذا الأمر وخطورته، لكن بعدَ فَواتِ الأوان!

وفوق كلِّ هذا، أظنُّ أنَّه يمكننا القَول إنَّ هناك شخصًا آخرَ رأسُه أشقى من الملك اللَّابس التاج، وهو الإنسانُ الذي يطالبُ بالاعتراف به ملكًا حينما لا يميِّزُ ذلك أيُّ شخصٍ آخر. وقد أثبتَ التاريخ قسوَتَه على هؤلاء الذين يطالبون بمَلَكيَّة لا يملكونَها بعد. أجل! احتمال الفوز واعتلاء العرش واردٌ، لكنَّ عاقِبة الفشل وخيمة؛ فإذا فشلتَ بوصفك ملكًا مُحتَمَلًا، فلا يَسعُك أن تقولَ "آسف" وتمضي قُدمًا في حياتك. إذ من المحتمل أن ينتهي بك المطاف بفقدان ذاك الرأس الذي أردتَ أن تضعَ عليه التاج في بداية الأمر!

أحد الأمور اللافتة في حياة يسوع هو حقيقة الصِّدام المحتَدِم بينه وبين السُّلطات في زمانه. كان المسيح نجَّارًا فقيرًا من بلدةٍ ريفيَّة مُهمَّشة في الشمال، أصبح في خلافٍ ليس فقط مع قادة شعبه، بل مع قادة السلطات الرومانيَّة التي كانت تبسطُ سيطرتَها على المنطقة. فمن شأن هذا أن يوحي لنا بأنَّ الذي أمامنا ليس مجرَّد معلِّمٍ دينيٍّ له من الحِكَم اللَّطيفة قليلٌ عن الحياة وكيفيَّة العيش فيها، ولسنا أيضًا بصَدَد التَّعامُل مع فَيلسوفٍ أو حكيمٍ بالأخلاق. كلَّا! فبينما عُلِّق يسوعُ ليموتَ مُهانًا على صليبٍ رومانيّ، كانت التُّهمة التي علَّقها الرُّومان فوق رأسه ساخرين به وبالشعب المظلوم كلِّه: "يَسوعُ، مَلِكُ اليَهود".[٣]

ليست قصَّةُ يسوعَ قصَّةَ رجلٍ صالح؛ بل هي قصَّةُ المطالَبة بالعرش.

---

٣) متَّى ٢٧: ٣٧.

عرشُ إسرائيل لن يظلَّ فارغًا

بدأ يسوع خدمته العلنيَّة بحسب الكتاب المقدَّس يومَ عُمِّد في نهر الأردن على يد رجلٍ يُدعى يوحنَّا المعمدان.

كان يوحنا يعِظُ الناس لأشهُر بحاجتهم إلى التَّوبة عن خطاياهم (ويعني ذلك ببساطةٍ الالتفاف والابتعاد عنها) لأنَّ مملكة الله- وهي سيادة الله على الأرض- كانت قد اقتَرَبت، بحسب ما وعظ يوحنَّا.[٤] وهذا لأنَّ الملكَ المختارَ من الله كان سيظهر عن قريب، والناس في أمَسِّ الحاجة إلى إعداد أنفسهم لمجيئه.

وكعلامة على توبتهم، سألَ يوحنَّا الجموعَ أن يُغطِّسوا أنفسهم بمياه النهر رمزًا إلى تنقِيَتهم من الخطايا والإثم. وحقيقة أنَّ يسوع عُمِّد بهذه الطريقة حافلةٌ بالدَّلالات المهمَّة الخاصَّة بمعموديَّته هو خلافًا للباقين، والذي سنتحدَّث بشأنه لاحقًا. أمَّا الآن فيكفينا ملاحظةُ أنَّ يوحنَّا لمَّا رأى يسوعَ مُقبِلًا إليه آمن فورًا بأنَّه مَن كان يَعِظُ عنه طَوال الوقت الماضي، ثمَّ قال: "هَذا هُوَ الذي قُلتُ عنه: «يَأتي بَعدي رَجُلٌ أعظَمُ منِّي، لأنَّه كانَ قَبلي»".[٥]

إليك المقصود: عَلِمَ يوحنَّا أنَّ الله يريد تأسيسَ مملكته على الأرض، وكان هذا أساسَ رسالة يوحنَّا، ثمَّ أشار إلى المسيح يسوع بِكَونه ملكَ هذه المملكة. وما يجعل الأمرَ غايةً في الأهمِّيَّة هو ما أفاد به يسوع نفسه؛ فهذا لم يكن مجرَّد قناعةٍ لدى يوحنَّا وحده، إذ أفادَ يسوع أنَّ يوحنَّا كان

٤) متَّى ٣: ٢.

٥) يوحنَّا ١: ٢٩-٣٠.

آخر أنبياء العهد القديم، ونهاية سلسلة من الرجال دامت قرونًا عدَّة كانت غايتُهم العُظمى تثبيت عيون الأُمَّة على الملك الحقيقيِّ الوحيد الذي سيرسله الله أخيرًا ليخلِّصَهم من خطاياهم. وما كان إعلان يوحنَّا سوى أنَّ اللحظة حانت، والملك أتى.

ربَّما سمعتَ بما حدث بعد ذلك. يقول الكتاب المقدَّس إنَّه حالما صعدَ يسوع من مياه النهر عَقِب معموديَّته "رَأى رُوحَ الله يَنزِلُ على هَيئةِ حَمامَةٍ وَيَستَقرُّ عليه. وجاءَ صَوتٌ من السَّماء يَقولُ: "أنتَ هُوَ ابني المحبوبُ. أنا راضٍ عَنكَ كلَّ الرِّضا"".[٦] فضلًا عن نزول روح الله على هيئة حمامة والصوت السماويِّ الذي علِمَ الجميع أنَّه صوت الله، كانت الأهمِّيَّة العُظمى تكمن في ما قاله الصوت. كالعادة، تحمل كلُّ كلمة في الكتاب المقدَّس معنًى هائلًا، وأحيانًا أوجهًا عِدَّة للمعنى نفسه. لكنَّ ما يبرز لدينا الآن هو ما تحمله العبارة "أنتَ هُوَ ابني المحبوب"؛ فالله توَّجَ فيها يسوع بتاج إسرائيل، أي أنَّ يسوع المسيح كان ينصَّبُ رسميًّا بوصفه ملك اليهود.

كيف نعرف هذا؟ اشتُهرت العبارة "ابن الله" بوصفها لقبَ ملك اليهود طَوال أيَّام العهد القديم. وتعود جذور هذه العبارة إلى خروج بني إسرائيل من أرض العبوديَّة في مصر؛ فعندما سمع الله دعوات النَّجاة من المصريِّين، هدَّدَ فِرعَونُ مصر قائلًا: "إسرائِيلُ ابنِي البِكرُ، وَأنا أقولُ لَكَ: أطلِقِ ابنيَ لِيَعبُدَني"[٧]. كان هذا إعلانٌ عن محبَّة شديدة ومُميِّزة لبني إسرائيل، نوهِ إلى انفصالهم واختلافهم عن باقي أمَم العالم. كان الله يُعلِّم فرعون أنَّه تعالى سيصارع من أجل بني إسرائيل لأنَّه يحبُّهم؛ فَهُم كانوا ابنه.

---

٦) متَّى ٣: ١٦-١٧.

٧) خروج ٤: ٢٢-٢٣.

وبعد أعوامٍ، أُطلق هذا اللقب "ابن الله" على ملك إسرائيل. قال الله عن داوُد الملك العظيم ووارثيه: "سَأَكُونُ أباه، وَهُوَ سَيَكونُ ابني".[٨] الإيحاء الرمزيُّ مُهمٌّ جدًّا: دُعِيَ ملك اليهود بلقبِ "ابن الله"-مثلما دُعِيَتِ الأُمَّة- لسبب تمثيله الأُمَّة جمعاء في ذاته؛ فهو مُمثِّلهم الشرعيُّ أمام الله، حتَّى إنَّ ما يحصل له بوصفه نائبًا عن الأُمَّة يُمثِّل ما يحصل للأمَّة جمعاء. في هذه الناحية من التشبيه يُجسِّد الملكُ بني إسرائيل.

يساعدنا هذا على فهم الأهميَّة المُدهشة لما قاله الله لحظة معموديَّة يسوع. أجل، كان يصف علاقة الأب والابن الكامنة منذ الأزل بينه وبين يسوع (وسنتوسَّع في الحديث عن هذا لاحقًا)، إلَّا أنَّه تعالى كان يُعلن بأنَّ يسوعَ كان يُخوَّل رسميًّا بمَهمَّة تمثيل بني إسرائيل لكَونه ملكَهم. من تلك اللحظة فصاعدًا، سيمثُل يسوع أمام العليِّ بوصفه نائبًا ومُمثِّلًا شرعيًّا، بل حتَّى بوصفه بطلًا لشعبه.

كان يسوع يعلم منذ البداية أحقيَّته بمنصب الملك. ورُغم أنَّه غالبًا ما أمر الناس بالتكتُّم على هذه الحقيقة، بل إنَّه رفضَ في أحد المواقف محاوَلة الجموع تنصيبه ملكًا- فإنَّ هذا لم يكن رَفضًا للمَنصب، بل كانَ علمًا منه أنَّه سيكون ملكًا مختلفًا عمَّا أراده الناس وتوقَّعوه. أراد الظَّفَرَ بالتَّاج بشروطه التي وضعها هو، لا بالشروط الثَّوريَّة الخاطئة التى أرادَها الناس.

وفي الحقيقة، قَبِل يسوعُ بسرور تحيَّة الناس له كملك في الوقت الذي أدرك فيه الناس فعلًا مَن كانوا يحيُّون. يَرِدُ في متَّى ١٦ ذِكرُ لَيلةٍ سأل فيها

٨) صموئيل الثاني ٧: ١٤.

يسوع أقربَ أتباعه، بعد مواجهةٍ أخرى مع قادة الشعب، عمَّا يقول الجمع إنَّه هو. وكانت هناك العديد من الآراء التي أخبره بها أتباعه: "بعضُهُم يَقولُ إنَّكَ يُوحنَّا المعمدانُ، وَآخَرُونَ إنَّكَ إيلِيَّا، وَآخَرونَ إنَّكَ إرمِيا، أو نَبِيٌّ كَباقِي الأنبِياء". يتَّضح أنَّ يسوع كان مُدهشًا جدًّا حتَّى إنَّ الناس ظنُّوا أن لا بُدَّ أن يكونَ أحَدَ الأنبياء وبُعث إلى الحياة! لكنْ مهما ظنَّ الناس، كان المسيح أكثر اهتمامًا بما ظنَّه تلاميذه هو، لذا سألهم: "وَأنتُم، مَن أنا في رَأيِكُم؟". سلَّط هذا السؤال الأضواء عليهم، فكان رجلٌ يُدعى سمعان أوَّل مَن أجاب قائلًا: "أنتَ هُوَ المسيحُ، ابنُ الله الحيّ".

ومع أنِّي أرى أنَّ سمعان عنى بقَوله أكثر من هذا، فإنَّه كان على الأقلِّ يُحيِّي يسوع بوصفه ملك الأمَّة: أنت هو الممسوح (هذا ما عنته كلمة المسيح في اللغة اليونانيَّة) ابن الله والملك! وماذا كان ردُّ المسيح؟ ما كان منه إلَّا أنَّه قَبِل التحيَّة الملوكيَّة، وقال فَرحًا: "هَنِيئًا لَكَ يا سِمعانُ بنَ يُونا، لأنَّ مَن أعلَنَ لَكَ ذَلِكَ لَيسَ إنسانٌ، بَل هُوَ أبي الَّذي في السَّماءِ". كان سمعان- والذي أسماه يسوعُ بطرسَ- قد أدرك ما كان يسوع يعلِّمه مسبَّقًا عن نفسه، وهو كونه ملك إسرائيل الشرعيّ.[٩]

ويَرِد في إنجيل لوقا ١٩ حدثٌ آخر أعلن فيه يسوع بصورةٍ دراميَّة وعلنيَّة عن حقِّه بالمَلَكيَّة، قبل أسبوع فقط من موته على الصليب حيث كان وتلاميذه في طريقهم إلى أورشليم (القُدس) لحضور عيد الفصح. ومن المُحتمَل أنَّ مئات الآلاف من الناس كانوا يشقُّون طريقَهم إلى المدينة ذلك الأسبوع، إذ إنَّه أهمُّ أعيادِ السنة اليهوديَّة.

٩) متَّى ١٦: ١٣-٢٠.

وبينما كانوا يقتربون من المدينة، أرسَلَ يسوع بعضًا من تلاميذه إلى قريةٍ صغيرةٍ تُدعى بيت فاجي، وأمرهم بإحضار أتان (أنثى حمار) مُعَدٍّ لهم. يقول الكتاب المقدَّس إنَّ يسوع امتَطى الأتان وذهب في مسيرةٍ قصيرةٍ من بيت فاجي إلى أورشليم (القدس) بينما تبعه حشدٌ كبير من الناس. وإليك ما حدث بعدها:

> "وَاقتَرَبَ من مُنحَدَر جَبَل الزَّيتُون. حينَئذٍ ابتَدَأت حُشُودُ أتباعه كُلُّهم يُسبِّحونَ اللهَ بفَرَحٍ بأصواتٍ عاليَةٍ من أجل كلِّ المُعجزات التي رَأوها. فَسبَّحُوا وقالوا: «مُبارَكٌ الملكُ الذي يَأتي بِاسْم الرَّبِّ! في السَّماء سَلامٌ، وَالمجدُ لله في الأعالي!»".[10]

> "وكانَ مُعظَمُ النَّاس يَفرِشونَ أردِيَتَهُم عَلى الطَّرِيق. ولكنَّ آخَرينَ قَطَعوا أغصانًا من الأشجارِ وَفَرَشوها على الطَّريق. وَجُموعُ النَّاس الذينَ كانوا يَسيرونَ أمامَه وَخَلفَه كانوا يَهتِفونَ: «يَعيشُ المَلِكُ! يَعيشُ ابنُ داوُدَ. مُبارَكٌ هُوَ الآتِي بِاسمِ الرَّبّ. يَعيشُ المَلِكُ في عُلاه»".[11]

يمتلئ هذا المشهد بالدَّلالات بالغة الأهمِّيَّة. لم يكُنِ الناس فقط يلوِّحون بالأغصان ويفرشون أرديَتَهم على الطريق أمام يسوع كأسلوبٍ رمزيٍّ ومُعتاد للخضوع للملوك، بل كانوا أيضًا يدعونه ملكًا ويهتِفون بكَونه وارث داوُد! وفوق هذا، كانوا يقتبسون أنشودةً قديمة اعتادَ الناس

١٠) لوقا ١٩: ٣٧-٣٨.

١١) متَّى ٢١: ٨-٩.

إنشادَها لملِكِهم حينما كان يقترب من الهيكل لتقريب ذبيحة.[١٢]

كان المشهد كلُّه مَوضعًا للفُرجة، وقصد يسوع من هذا جذب الانتباه. ارتاع بعضٌ من الفريسيِّين وتذمَّروا ليسوع بعد أن سمعوا هتافَ الجمع وما كان يُقال، فأَعرَبوا عن ذلك قائلين: "يا مُعَلِّمُ، وَبِّخ تَلاميذَك!". هل أدركتَ ما كان مسؤولو الهيكل هؤلاء يفعَلون؟ كانوا يريدون تأييد المسيح لهم بأنَّ هتافاتِ الشعب الملَكيَّة لم تكُنْ مناسبة، أي أنَّهم أرادوا منه رَفْضَ الملَكيَّة. لكنَّ المسيحَ أبى ذلك وقال: "أَقُولُ لَكُمُ الحقَّ، إِنْ سَكَتوا هُم، فَسَتَصرُخُ الحِجارة!".[١٣] لا مجال للتَّأخير، كان الوقت قد حان لتتحقَّقَ النبوَّة بوُصول الملك إلى عاصمته على ظَهْرِ أتان.

لم يَعُدْ عرشُ إسرائيل فارغًا كما كان منذ أكثر من ستِّ مئة سنة، بل صار يعرفُ مَلِكَه.

ملكٌ حقيقيٌّ على عرشٍ حقيقيٍّ ذي تاريخ حقيقيّ

يصعبُ علينا اليوم استيعاب الدلالة الواضحة لما كان يحصل عند دخول يسوع أورشليم (القدس) ممتطيًا الأتان في ذلك اليوم. يمكن أن نفترضَ أنَّ الناسَ الذين تدافَعوا حوالَي المسيح كانوا يأدُّون شيئًا يشبه مسرحيَّة دينيَّة صاخبة، كانت ستُنسى فورَ أن عادوا إلى صوابهم وقصدوا بيوتَهم. إلَّا أنَّ هؤلاء لم يكونوا يهتفون بمُلكٍ حقيقيٍّ سيجلس على عرشٍ حقيقيٍّ له تاريخٌ حقيقيّ.

لم يحظَ بنو إسرائيل دَومًا بمَلك. ففي بداية تاريخهم؛ وبينما

١٢) مزمور ١١٨: ٢٦.

١٣) لوقا ١٩: ٣٩-٤٠.

كان الشعب مجرَّدَ عائلةٍ ممتدَّة، كان يقودهم سلالة من الآباء ومن ثمَّ سلسة طويلة من الأنبياء والقضاة أقامَهم الله ليحكُموا الشعبَ ويحموه. غير أنَّ بني إسرائيل سألوا النبيَّ صموئيل قائدَهم أخيرًا أن يمسحَ لهم ملكًا. ورغمَ أنَّ صموئيل اعترض وحذَّرهم من الإساءات التي قد يمارسها الملك مُستغلًّا السلطة، فإنَّهم أصرُّوا، وهكذا مسحَ صموئيل ملكًا عليهم. وصلت السلالة الملكيَّة إلى أوجِها في أثناء حُكم الملك داوُد؛ فتًى راعٍ من قرية بيت لحم اختارَه الله (مُسبِّبًا دهشةً للنَّاس) ليحكُمَ الشعب. حينها بدأ نجمُ داوُد بالسُّطوع تحت برَكة القدير وإرشاده، إلى أنِ اعتَلى الحُكمَ نحو عام ١٠٠٠ ق. م، حيث وحَّد أسباطَ بني إسرائيل الاثني عشر تحت تاجٍ واحد، وأخضعَ أعداء الأُمَّة، واستَولى على أورشليم (القدس) وجعلها عاصمةَ المملكة. وفوق كلِّ هذا، وعده الله بأن يُثبِّت سلالتَه المالكة إلى الأبد.

يُعرَفُ داوُد بأنَّه أعظَمُ ملوك اليهود، حتَّى إنَّ المنصب نفسه دُعي "بالملكيَّة الداوُديَّة"، وعرشُه "بالكُرسيِّ الداوديّ". أمَّا داوُد نفسه فكان محاربًا مِقدامًا وعازفًا موهوبًا وحكيمًا، كما كان شاعرًا. كتب داوُد أكثر من نِصف الأناشيد التي يحتويها كتاب المزامير، كما يُعرَفُ بأنَّه مثالٌ للإيمان والبرِّ. لم يكن داوُد كاملًا- حاشا!- إلَّا أنَّه أحبَّ الله حُبًّا جمًّا، وأحسَّ بعُمق ذنبه وعوَزه، وآمن بصدقٍ برحمة العليِّ بمغفرة خطاياه. ويذكُرُ الكتاب المقدَّس أنَّ الله وصفَ داود بأنَّه "رَجُل كَما يُريده قَلبُه".[١٤]

وبعدما تُوُفِّي داوُد نحو عام ٩٧٠ ق. م، خلفَه على العرش ابنه سُلَيمان،

١٤) ١صموئيل ١٣: ١٤.

حيث كان مُلكُه أعظم شأنًا من ذلك الذي لأبيه من عدَّة نواحٍ، لا سيَّما في بدايات الحُكم. فقد ازدادت عَظَمة المملكة وغناها وتأثيرها وصولًا إلى عصرها الذهبيّ. غير أنَّ السلالة الملكيَّة آلتْ إلى الفَوضى بموت سليمان بعد أن حَكم لأربعين عامًا. وقَسَمَت حربٌ أهليَّة المملكةَ قسمَين: مملكة إسرائيل (الشماليَّة)، ومملكة يهوذا (الجنوبيَّة)، حيث شَهِدَ الشعبان في القرون اللاحقة انحطاطًا مروِّعًا للمُلوك في عبادة الأوثان والشرِّ الفظيع، حتَّى إنَّ الملك آحاز، من المملكة الشماليَّة، ضحَّى بابنه لإلهٍ وثنيٍّ بحرقه حيًّا بالنَّار.

وفي غضون كلِّ هذا، واصل الله إرسال أنبياء لتحذير إسرائيل ويهوذا وحثِّهم على ترك خطاياهم والعودة إلى طاعته، وإنْ فعلوا هذا كان الله سيغفر لهم ويُعيد بناءَ أُمَّتهم، وإلَّا كانت ستَحلُّ عليهم الدينونة، ويطالهم الموت. لكنَّ أيًّا من الشعَبين لم يتُب، ممَّا أدَّى إلى تعرُّض المملكة الشماليَّة لغزو الإمبراطوريَّة الأشوريَّة الفتَّاكة نحو سنة ٧٠٠ ق. م، ووُقوع أهلها في السبي وتعرُّضهم للتَّهجير. أمَّا مملكة يهوذا الجنوبيَّة فقد نجت لأكثر من مئة عام، إلى أن أتى نبوخذنصَّر البابليُّ واجتاحَها سنة ٥٨٦ ق. م، ودمَّر أورشليم (القدس) والهيكل وسبى أهلها إلى بابل. وأسر البابليُّون الملك الداوُديَّ وقَلَعوا عَينَيه، ووَضعوا خزامةٍ في أنفه واقتادوه إلى بابل حيث أمضى حياته يشارك نبوخذنصَّر مائدة الطعام. ومع أنَّ هذا الدعوة تبدو حسنة، فقد كانت بالفعل تعبيرًا عن الإذلال أكثر منه عن التكريم. فقد كان الملك الداوديُّ الآن مجرَّد تابعٍ أعمَى وبائس للإمبراطور البابليّ.

مضت السنوات، وهزمَتِ الإمبراطوريَّة الفارسيَّة البابليِّين، وأطاحَ اليونانيُّون بالفارسيِّين، ولاحقًا ابتلعَ الرومان حضارة اليونانيِّين، إلَّا أنَّ أمَّة بني إسرائيل لم تتمكَّن من إعادة استقلالها وتثبيت عرشها. فقد بقيت

تابعةً مذلولة وخاضعة لباقي الأمم، ولأكثر من ستٍّ مئة عام ظلَّ العرش الداوُديُّ لا يعرفُ ملكًا.

ورغم هذا لم يضمحلَّ الرجاء؛ إذ ظلَّ الأنبياء يتنبَّأون بزمنٍ آتٍ تُقام فيه السلالة الملكيَّة الداوُديَّة من جديد، في وسط الأحداث المأساويَّة التي أصابت إسرائيل من انقسام وانحطاط وسقوط. كما أنبأوا اليهود بيَومٍ سيرسل الله فيه ملكًا يحكُم من عرش داوُد ببرٍّ وعدلٍ مُطلَقَين- ملكًا ممسوحًا بروح الله سيعيد قلبَ الأُمَّة إلى عبادة الله وحده، وسيملُك إلى الأبد بالحكمة والرأفة والمحبَّة. ليس ذلك فحسب، بل وعد الله أيضًا ألَّا يكون العرش الداوُديُّ مجرَّد عرشٍ محلِّيّ، بل ستَشملُ سُلطتُه كلَّ الأرض حتَّى إنَّ الشعوب ستأتي إلى أورشليم (القدس) وتُقدِّم الإجلالَ لمِلك إسرائيل، ملِك الملوك.[١٥]

بدت هذه النبوات سخيفةً على الأرجح بينما شاهدَ اليهود ملوكَهم يقَعون في الشرِّ وتحت دينونة الله العادلة واحدًا تلو الآخر، وبدا أنَّها استهزاءٌ قاسٍ أيضًا حينما شاهدوا آخرَ ملكٍ داوديٍّ يرجو الرحمة عندما اقتلعَ البابليُّون عينَيه. لكنَّهم لو أصغوا بحذرٍ للنبوَّات، لأدرَكوا أنَّ هذا الملك الذي وعد به الأنبياء ليس مثل باقي الرجال الذين اعتَلَوا العرشَ لزمانٍ ثمَّ ماتوا، فقد أوحت النبوَّات أنَّه أعظم من ذلك بكثيرٍ. في الواقع، لو أصغى الشعب جيِّدًا لأدركوا أنَّ الله لم يَعِدْ بمجرَّد إرسال ملكٍ إلى اليهود، بل سيأتي بنفسه ويكون الملك عليهم. لاحظ ما قاله النبيُّ إشعياء عن ميلاد هذا الملك العظيم:

> "هَذا حينَ يولَدُ لَنا وَلَدٌ، ونُعطى ابنًا،
> وتَكونُ مَسؤولِيَّةُ القِيادةِ على عاتِقِه".

١٥) إقرأ مثلًا إشعياء ٩؛ ١١؛ ملاخي ٥.

لا شيء ملحوظ في هذا، أليس كذلك؟ يبدو كأيِّ ملكٍ آخر. تابعِ القراءة:

”وَسَيُدعى اسمُهُ: المشيرَ العَجيبَ، اللهَ الجَبَّارَ،
الأبَ الأبَدِيَّ، رَئِيسَ السَّلام.
لَن يَكونَ هُناكَ حَدٌّ لِعَظَمةِ سُلطانِه
وَسَلامِهِ عَلَى عَرشِ داوُدَ وَمَملَكَتِه.
سَيُؤَسِّسُها وَيَحفَظُها بِالبِرِّ من الآنَ وإلَى الأبَد“.[١٦]

ليس هذا ملكًا اعتياديًّا. لا يملكُ أيُّ ملكٍ اعتياديٍّ ”من الآنَ وإلَى الأبَد“، وليس من ملكٍ له سلطانٌ بلا حدٍّ. ولا من ملكٍ يُدعى المشيرَ العَجِيبَ أو الأبَ الأبَدِيَّ أو رَئِيسَ السَّلامِ. وفوق كلِّ ذاك، ليس من أحدٍ- ملكًا كان أم لا- يمكنه أن يحملَ لقب اللهَ الجَبَّارَ ولا لأيِّ سبب كان. لا أحد، ما عدا... الله نفسه.

أعيُنٌ وذهنٌ مذهولان بالجلال

كثيرًا ما تخيَّلتُ سمعان بطرس يقول هذه الكلمات: ”أنتَ هُوَ المَسِيحُ، ابنُ الله الحيّ“، هامسًا وعيناه وذهنُه مذهولان بإجلال. أظنُّ أنَّه بدأ يستوعِب حينها ما كان يجري من حوله. أجل، كان الملوك القُدامى يحملون اللقب ”ابن الله“ الذي ظنَّه الجميع مجرَّد لقبٍ عاديّ. إلَّا أنَّه لم يكن كذلك؛ بل كان قصد الله منه الإشارة إلى المستقبل وإلى مشيئته بتنصيب نفسه على عرش داود. وكما أعلن الأنبياء، سيكون الملك العظيم ”ابن الله“ لا رمزًا فقط، ولا تلقيبًا، بل بالحقيقة. الله نفسه هو الملك.

---

١٦) إشعياء ٩: ٦-٧.

هذا ما أدركه بطرس: أنَّ هذا الرجل الجالس أمامه هو الملك المسيح المسُوح لإسرائيل، لذا كان لقبه "ابن الله" من هذه الناحية، ومن ناحية طبيعته: هو ابن الله الأزليّ. ليس فقط مَلِكَ إسرائيل، بل مَلِك الملوك.

لقد أدركَ بطرس أنَّ هذا الرجل هو الله المتجسِّد.

الفصل ٤

العظيم "أنا هو"...

لم يَتَبادر إلى ذهن بطرس فكرة ألوهيَّة المسيح يسوع من لا شيء. فلنذكُر أنَّه رافَقَ يسوعَ أشهرًا عدَّة شاهد فيها المعجزات التي صنعها، والسقماء الذين شفاهم إذ لم يكُن لهم رجاءٌ في الشفاء، بل إنَّه أقامَ أُناسًا من الموت. كانت هذه الأحداث كافيةً لتُدهشَ أيًّا كان.

هذا فضلًا عن أوقاتٍ أُخرى أصابتْهم بالذُّهول- أوقاتٍ بدت فيها الطبيعة أيضًا تنحني منصاعةً للمسيح.

إحدى هذه المرَّات كانت تقريبًا عند بداية خدمة المسيح العلنيَّة. كان قد ذاع الخبرُ عن رجلٍ يشفي السُّقَماء ويُخرج الشياطين، لذا بدأت الحشود تتجمهَرُ من حوله. تعاملَ يسوع معهم بصبرٍ ولُطف، حيث أمضى الساعات بإخراج الشياطين وشفاء من عانوا جرَّاءَ شتَّى الأمراض. لكنَّ يسوع تَعِب يومها، إذ كان له عدَّة ساعات يشفي ويخدم على شاطئ بحر الجليل (بُحيرة طبريَّا). وحينما أبصر جَمعًا كبيرًا يُقبل إليه من بعيد، صعد مع تلاميذه إلى قاربهم وأبحروا إلى الطرف الآخر من البُحيرة.

كان يسوعُ وتلاميذه معتادين الإبحار في بحر الجليل؛ إذ إنَّ قسطًا كبيرًا من تعاليم المسيح والشفاءات التي صنعها كانت قد جرت في القُرى

المحيطة بالبُحيرة، والتي تمتاز بصيد السمك. كما أنَّ بعضًا من تلاميذه، ومن بينهم بطرس، كانوا قد امتهنوا الصيد هناك قبلما دعاهم يسوع ليتبعوه. وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ بحرَ الجليل ليس كبيرًا، وهو في الواقع ليس بحرًا، بل بحيرةٌ من الماء العذب لا يتجاوز محيطها ثلاثةً وخمسين كيلومترًا. إلَّا أنَّ أبرزَ ما يميِّزه هو انخفاضه نحو مئتَي متر تحت مستوى سطح البحر، والمنخفضات السحيقة التي تحيط به تأتي إليه برياح سرعتها هائلة. لذا فضلًا عن اشتهار بحر الجليل بالسمك الوفير، اشتُهر آنذاك أيضًا برياحٍ عاتية تعصف عادةً ودون إنذار.

وهذا ما حدث في ذلك اليوم بالتَّحديد؛ فبعد ساعات من إبحار سفينة المسيح وتلاميذه، هبَّت إحدى هذه العواصف بينما كانوا في منتصف البحيرة، إلى حيث لا منفعة من الالتفاف والعودة. يبدو أنَّ هذه العاصفة لم تكن متوسِّطة الشدَّة، بل وصفها البشير متَّى، وهو أحد التلاميذ الذين خاضوا التجرِبة، ولهم درايةٌ بهذه العواصف، بأنَّها "اضطرابٌ عظيم"؛ والكلمة اليونانيَّة التي استخدمها البشير متَّى لتشيرَ إلى العُنف الاستثنائيِّ للعاصفة هي "سيسموس" [1] (Seismos)، وتعني زلزالًا. أي أنَّ متَّى أرادَنا أن ندركَ أنَّ هذه لم تكن عاصفةً مثل العواصف الأخرى، بل كانت كزلزال على سطح الماء! وهكذا وجدَ التلاميذ أنفسهم غارقين يتخبَّطون في قاربهم الصغير بين أمواج البحر العاتية التي أثارتها رياحٌ وجدت طريقَها إلى البُحيرة من الوديان المحيطة.

كان الرجال مرتعبين دون شكّ. وهذا أمرٌ طبيعيّ؛ إذ يمكنُ قَلْبُ القارب الصغير وتحطيمه بسهولة، لينتهيَ بهم المطاف بالغرق والموت

١) متَّى ٨: ٢٤.

دون أن يدريَ بهم أحدٌ. ورُغم خوف هؤلاء الرجال، فلم يكن المسيح خائفًا، بل كان نائمًا على متن مؤخَّر القارب. عندها هُرِع التلاميذ إلى يسوع المسيح وأيقَظوه قائلين: "يا سيِّدُ، نَجِّنا فإنَّنا نَهلِكُ!"، وهذا ما سجَّله متَّى. أمَّا ما ورد عن مرقس فهو قولهم: "يا مُعَلِّمُ، أما يَهُمُّكَ أنَّنا نَهلِكُ؟"، ولوقا أوْرَد: "يا مُعلِّمُ، يا مُعلِّمُ، إنَّنا نَهلِكُ!".[٢] ومع أنَّ الكثير كان قد قيل حينها، فإنَّ التلاميذ أدركوا شيئًا واحدًا: كانوا جميعهم في مأزق أرادوا تدخُّل المسيح فيه.

لنتوقَّف هنا قليلًا. إنَّ استنجادهم بيسوع مثيرٌ للاهتمام، أليس كذلك؟ أقصدُ من ذلك: ما الذي أراد هؤلاء الرجال من يسوع فعله؟ فأنا أشُكُّ في وُجود أيَّة خُطَّة. يبدو عليهم الانبهار الكافي من المسيح ليفترضوا قدرتَه على فعل أمرٍ ما. فهم لم يقولوا: " أتعلمون أيُّها الرجال؟ ينبغي لنا أن نهدأ. فالربُّ نائمٌ في الخلف". فلرُبَّما توقَّعوا منه أن يحميَهم من العاصفة الهوجاء بطريقةٍ ما، أو أنْ يدفعَ بالقارب مسرعًا، أو أنْ ينقُله في لحظة إلى الطرف الآخر من البُحيرة. ومع أنَّهم انتظروا المسيح ليفعلَ شيئًا ما، فما لا يمكن إنكاره هو عدم توقُّعهم ما قام به فعلًا.

لنعُد إلى الرواية. هُرِعَ التلاميذ فَزِعين إلى مؤخَّر القارب وأيقَظوا يسوع. أمَّا يسوعُ فقامَ بأمرٍ عجيب: استيقظَ من نومه، وربَّما فرك عَينَيه، وكلَّمهم قائلًا: "ما بالُكُم خائفينَ يا قَليلي الإيمان؟".[٣] لا يسعني إلَّا تصوُّر رغبة واحد أو اثنين من التلاميذ- بطرس على وجه التحديد- بأن يجيبوا: "ما بالنا خائفين؟ لا بدَّ أنَّك تُمازحنا!". لكنَّهم لم ينطقوا بكلمة. ويقول

٢) متَّى ٨: ٢٥؛ مرقس ٤: ٣٨؛ لوقا ٨: ٢٤.

٣) متَّى ٨: ٢٦.

الكتاب المقدَّس إنَّ يسوع وقف بهدوءٍ عجيب "وانتهر الريح" وقال للبحر: "اسكُت! ابكَم!".[٤]

يا لها من كلمة آسرة! "انتهرهم" تمامًا كما يؤدِّب أبٌ أولاده. هل سبق لك أنِ انتهرت الريح أو اعترضت على عاصفة؟ قد تحاول وتذهب لتحاجج إعصارًا آتيًا من الشاطئ حول الدمار الذي قد يجلبه، إلَّا أنَّ الإنجيل يقول إنَّه حينما أمر يسوعُ العاصفةَ بالهدوء، أطاعت العاصفة فِعلًا. ويقول مرقس: "فسكَنَتِ الرِّيحُ وصارَ هُدوءٌ عظيم". سبق أن رأى هؤلاء التلاميذ عواصفَ تهدأ، وبسرعة أيضًا. لكن هذا لم يحدثْ بتاتًا؛ فحتَّى لو هدأت الرياح بسرعة، كانت المياه تستمرُّ بالتخبُّط مدَّةً إضافيَّة قبل أن تهدأ هي أيضًا. أمَّا ما رأوه فكانَ توقُّف الرياح والأمواج في آنٍ واحد بهدوءٍ خارق للطبيعة. وقف التلاميذ مذهولين يقطرون ماءً. وراحوا يتبادلون النظرات ما بينهم وينظرون إلى يسوعَ مدهوشين. لا يذكرُ الإنجيل من الذي طرحَ السؤال في النهاية، إلَّا أنِّي أراهن على أنَّ جميعهم هزُّوا رؤوسهم بعُجبٍ مؤيِّدين السائل: "مَن هو هذا؟ فإنَّ الرِّيحَ أيضًا والبحرَ يُطيعانِه!".[٥]

أكثرَ من مُجرَّد ملك

أتساءل ما إذا كان ذلك اليوم يجول في خاطر بطرس حينما أجاب عن سؤال المسيح، وقال: "أنتَ هو المسيحُ ابنُ الله الحَيّ!".[٦] يعتقد بعض

٤) مرقس ٤: ٣٩.

٥) مرقس ٤: ٤١.

٦) متَّى ١٦: ١٦.

الناس أنَّ بطرس لم يكنْ يُعبِّر عمَّا هو أعمق من اعتراف بأحقيَّة يسوع المسيح بالمُلك على إسرائيل. يعتقدون أنَّه تصريحٌ ذو علاقة بالسياسة لا أكثر. غير أنِّي لا أتَّفق مع ذلك. وإليك السبب: آخر مرَّةٍ دعا فيها التلاميذ يسوع بلقب "ابن الله" كانت عندما قامَ بأمرٍ آخر وضعَه في خانة أسمى من مجرَّد ملك. وليس ذلك فحسب، بل ما حدث كانت له ذكرى خاصَّةٌ لدى بطرس نفسه.

كانت الحال مشابهة لتلك التي أَسْكَت فيه المسيح العاصفة. كان التلاميذ مرَّة أُخرى في قاربٍ متَّجهين إلى الناحية الأُخرى من البحيرة، وأخذت الرياح تَعصف والأمواج تتخبَّط نحو القارب، تمامًا كما سبق. كان ما يحصل مألوفًا جدًّا ما عدا فارقًا واحدًا: لم يكن يسوع هذه المرَّة موجودًا معهم.

كان يسوع في ذلك اليوم قد أطعم أكثر من خمس آلاف رجلٍ مع عائلاتهم من سمكتين وخمسة أرغفة، ثمَّ أرسل تلاميذه ليسبقوه إلى الجانب الآخر من بحر الجليل. لربَّما ظنُّوه سيَستأجرُ قاربًا آخر أو سيذهبُ برًّا حول البُحيرة، لكن في كلتا الحالتَين، أبحروا بالقارب بينما بَقِيَ يسوعُ ليُنهيَ خدمته للجموع، حيث صعد بعدها أعلى جبلٍ قريب واعتزل ليصلِّي.

في هذه الأثناء، كان التلاميذ يُمضون ليلةً صعبةً على متن القارب المضطرب بسبب الرياح والأمواج التي هاجت مُجدَّدًا، ممَّا أقلقَهم جدًّا. يذكرُ الإنجيل أنَّ الوقت حينها كان الهزيع الرابع من اللَّيل؛ أي في وقتٍ ما بين الثالثة والسادسة فجرًا. حينها أبصر التلاميذ أحدهم ماشيًا على الماء نحوهم! ومن المتوقَّع أنَّ قلقهم حالًا تحوَّل إلى رُعبٍ وصرخوا: "إنَّه خيالٌ!".

ما حدث بعدها يُعدُّ من أبرز أحداث سيرة حياة المسيح يسوع، ولرُبَّما

أغناها بالمعنى والأهمِّيَّة. فبعدما سمع يسوع صرخاتهم ناداهم قائلًا: "تشَجَّعوا! أنا هو. لا تخافوا". توقَّفِ الآن وتأمَّل في ما قاله، إذ يبدو أنَّ في هذه الكلمات القليلة سمع بطرس ما حاز ثقته. مال بطرس ونادى: "يا سيِّدُ، إنْ كُنتَ أنتَ هو، فمُرني أنْ آتيَ إلَيكَ على الماء". يا له من قولٍ عجيب! لا بدَّ أن تتساءل ما إذا نظر الآخرون إلى بطرس حاسبين أنَّه فَقَدَ عقله! لكنَّه لم يفقد عقله. إذ كان هناك شيءٌ ما في ما قاله يسوع جعل الأمر جليًّا لبطرس، وحان الوقت ليختبره. كان يسوع يعلم أيضًا ما يجول في خاطر بطرس، فدعاه مُجيبًا: "تعال!". ثمَّ، خطوة تلو الأخرى، نزل بطرس من القارب ووقف على الماء ومشى. لا يذكر الإنجيل مقدارَ ما مشاه بطرس، إلَّا أنَّه قبل أن يصلَ إلى يسوع لاحظَ الرياح التي تدفعه وأحسَّ بالمياه تلامس رجليه. وفي اللحظة التي أشاح بنظره عن المسيح ارتعبَ وبدأ يغرق، فصرخ مناديًا المسيح ليُنقذه. يقولُ الإنجيل إنَّه و"في الحال" مدَّ يسوع يده وأمسكه ورفعَه إلى القارب. لم يكن يسوع محتاجًا إلى إسكات الريح هذه المرَّة، فلمَّا دخلا القارب سكنت الريح في الحال.

وبحسب ما جاء في متَّى، تلى ذلك أنَّ "الذينَ في السَّفينَة جاءوا وسَجَدوا لهُ قائلينَ: "بالحَقيقَةِ أنتَ ابنُ الله!"".[٧]

لكن ماذا عَنوا بمناداتهم إيَّاه "ابن الله"؟ هل قصدوا أن يقولوا إنَّه ملكُ إسرائيلَ الشرعيُّ؟ هل كانوا يلقِّبونه بلقبٍ ملكيٍّ حملَه العشرات من الملوك السابقين؟ لا يُمكن! فالتلاميذ شاهدوه للتوِّ يمشي على الماء، ويأتي بأحدهم ليقومَ بالمِثل، ويهدِّئ الرياح دون كلمة. عُدْ بالذَّاكرة أيضًا إلى ما قاله المسيح وحفَّز بطرس على النزول من القارب من بداية الأمر. ما الذي

٧) متَّى ١٤: ٢٦-٣٣

سمعه في كلام المسيح حينما قال: "تشَجَّعوا! أنا هو"، ودفعَه للنُّزول من القارب بدلَ أن يقول: "حسنًا، يمكنُنا التوقُّف عن القلق الآن. إنَّه يسوع"؟ لماذا ملأه الإيمانُ فجأة بأنَّ يسوع كان مسيطرًا على الوضع تمامًا؟

تكمنُ الإجابة في كلمتي "أنا هو"...رغم أنَّنا لن نجد فيهما المعنى الذي قصده يسوع إنْ نظَرْنا إليهما دون النظر إلى الخلفيَّة التاريخيَّة للشَّعب اليهوديّ. كانت هذه الكلمة هي ما منحَ بطرس ثقةً عالية بيسوع لمَّا سمعَها؛ إذ إنَّ بطرس لم يسمَعْ سيِّده يقول فقط: "أيُّها رجال! إنَّه أنا يسوع"، بل أطلق يسوع على نفسه الاسم القديم والشهير لإله إسرائيل القدير.

يعود بنا هذا مجدَّدًا إلى وقتِ فداء بني إسرائيل من مصر. أحد الجوانب الطريفة للقصَّة هو جدلُ موسى مع الله حول عدم أهليَّته للقيام بالمهمَّة التي أوكِلَت إليه. طرحَ موسى عددًا من الأعذار: لستُ مهمًّا كفاية، لن يصدِّقونني، لستُ خطيبًا مفوَّهًا. وفي كلِّ مرَّة، كان الله يُجيبه ويُبطل أعذاره. إلَّا أنَّ أحد الأسئلة التي رفعها موسى كانت عمَّا يجيبُ الشعبَ حينما يسألونه عن اسم إلههم الذي أرسل موسى إليهم. فكشفَ جوابُ الله عن ذاته بعمقٍ جليّ: "فقالَ الله لِموسى: "أنا هوَ الذي هوَ. هكذا تُجيبُ بَني إسرائيلَ: هوَ الذي هوَ أرسلَني إليكُم"".[٨] وهكذا أفصحَ الله عن نفسه بأنَّه إله الكون المتسامي والمطلَق، أصلُ كلِّ ما هو موجود، وصانع الوجود، والخالق وسيِّد العالمين، الكائن والذي كان والذي يأتي؛ العظيم "أنا هو".

٨) خروج ٣: ١٤ (الترجمة العربيَّة المشتركة للكتاب المقدَّس).

هذا كان ما سمعه بطرس وحازَ ثقته. كان يسوع ينسبُ إلى نفسه اسمَ الله، وكان يفعل هذا بينما كان يمشي على وجه البحر. كان البحر أقوى الخليقة شدَّةً وإفزاعًا، وكان الرمزَ القديمَ للفَوضى والشَّرّ، والموطنَ الخرافيَّ للآلهة المُعادِية. وها يسوع يُخضعُه ويغلبُه ويحكمُه، ويدوسُه تحت قدمَيه حرفيًّا. يقول أحدُ الأناشيد الكتابيَّة القديمة: "ضَجيجُ المحيطِ عالٍ جِدًّا. وَأمواجُ البَحرِ المتلاطِمةُ قَوِيَّةٌ جِدًّا! وَلَكِنَّ اللهَ أعلَى وَأعْظَمُ!".[٩]

أترى المقصود؟ حينما دعا التلاميذ يسوع "ابن الله"، كانوا يُعلِنون أكثر من اعترافٍ بكَونه مجرَّد ملك. كانوا يعترفون أنَّه الله- الخالق والعظيم "أنا هو".

الرجل يدَّعي الألوهة

يدَّعي بعض الأشخاص أحيانًا أنَّ فكرةَ كَونِ يسوع هو الله هي مجرَّد اختِلاقِ مخيِّلة التلاميذ، وأنَّ يسوع لم ينسب هذا إلى نفسه، بل إنَّهم اختَلَقوا هذه القصَّة بعد موت المسيح، أو أنَّهم في أفضل الحالات أساءوا تفسيرَ ذكرياتهم حول جميع الأمور الحاصلة. إلَّا أنَّك لا تحتاج حتَّى لأن تقرأ الإنجيل بحذرٍ شديد لتلاحظَ ادِّعاءَ يسوع أنَّه الله مرَّة تلو الأُخرى، كما حاول أحيانًا أن يكونَ أوضح ما يمكن.

فمثلًا، حدث مرَّةً أنْ قال يسوع: "أنا وَالآبُ واحدٌ". ومرَّةً أُخرى سأله فيها فيلبُّس بحماسٍ أغفله عمَّا كان يسوعُ يقصد أن يقولَه: "يا ربّ، أرِنا الآبَ، وهَذا يَكفِينا"، فأجابه يسوع: "أمضَيْتُ مَعكُمْ كُلَّ هَذه المدَّة الطَّويلَة، وما زِلتَ لا تَعرِفُنِي يا فيلِبُّسُ؟ مَن رَآنِي فَقَد رَأى الآبَ

٩) مزمور ٩٣: ٤.

أيضًا، فَكَيفَ تَقولُ: "أرِنا الآبَ"؟". كانت هناك أيضًا تلك الحادثة التي ردَّ فيها المسيح على قادة اليهود في نهاية محاكَمَتِه قائلًا: "منَ اليومِ فَصاعِدًا، سَتَرَوْنَ ابْنَ الإنسانِ جالِسًا عن يَمِينِ عَرْشِ اللهِ، وَآتِيًا على سُحُبِ السَّماء". أدركَ رئيسُ الكهنة حالًا ما كان يدَّعيه المسيح؛ وهذا ما جعله يُمزِّق ثوبَه ويتَّهم يسوع بالتَّجديف؛ فالرَّجل الذي أمامه كان يدَّعي أنَّه الله.[١٠]

كما ادَّعى يسوع في إحدى المرَّات ادِّعاءً تجاوزَ حدَّ تصوِّر القادة، حتَّى إنَّهم التَقَطوا حجارةً ليرجموه. ويذكر الإنجيل أنَّ الموقف كان بالغَ الخطورة حتَّى إنَّ المسيح توارى عن الأنظار وغادر. كان الجدلُ قد بدأ بتَطاوُل الفَرِّيسيِّين على يسوع وشَتْمِه قائلين: "ألَسْنا مُحقِّينَ في قَولِنا إنَّكَ سامريٌّ وَفِيْكَ رُوحٌ شرِّير؟". كانت هذه إهانةٌ دنيئة؛ ليس أنَّهم ادَّعوا فقط بأنَّ فيه روحًا شرِّيرًا، بل كأنَّهم اتَّهموه بأنَّه من مدينة معروفةٍ بشرِّها المقيت. عمومًا، كان ردُّ المسيح: "لَيسَ فِيَّ روحٌ شرِّير، بل أنا أُمجِّدُ أبي وأنتُم تُهِينُونَني!... أقُولُ الحَقَّ لَكُمْ: إنْ أطاعَ أحَدٌ تَعليمي فلن يَموتَ أبَدًا". روَّع كلامه هذا الفَرِّيسيِّين فاتَّهموه بالتعجرُف قائلين: "الآنَ تَأكَّدنا أنَّ فِيكَ روحًا شِرِّيرًا! فَحتَّى إبراهِيمُ والأنبِياءُ كلُّهم ماتوا، وَأنتَ تَقُولَ: "إنْ أطاعَ أحدٌ تَعلِيْمِي فَلَن يَموتَ أبَدًا". فَهَلْ تَزعُمُ أنَّكَ أعظَمُ من أبِينا إبراهِيمَ؟ فَقَد مات هو، وماتَ الأنبياءُ أيضًا. فَمَنْ تَحسِبُ نَفسَكَ؟".[١١]

أمَّا يسوع فأجاب: "أبوكُمْ إبراهيمُ ابتَهَجَ مُتشَوِّقًا لأن يَرى يَومي، وقد رَآهُ

١٠) يوحنَّا ١٠: ٣٠؛ ١٤: ٨-٩؛ متَّى ٢٦: ٦٤.

١١) يوحنَّا ٨: ٤٨-٥٣.

وفَرِحَ". أو بكلماتٍ أُخرى، علِمَ إبراهيم بوَعد الله بإرسال مخلِّص، لذا ترقَّب هذا بفَرحٍ. أغاظَ هذا الكلامُ أيضًا القادةَ وأربَكَهم. كان لهم ادِّعاء المسيح بمعرفة إبراهيمَ إيَّاه، بل أيضًا معرفة المسيح لإحساس إبراهيم بالفَرَح، أمرًا مُبالغًا فيه، فقالوا: "لَم تَبلُغِ الخَمسِينَ بَعْدُ، وقَد رَأيتَ إبراهِيم؟".

أمَّا إجابة المسيح لسؤالهم فقد هزَّتهم: "أقولُ الحقَّ لَكُم: قَبلَ أن يَكونَ إبراهيمُ، أنا كائنٌ".[١٣،١٢]

إليك هذا الاسمَ مجدَّدًا، وهذه المرَّةُ استَعمَله يسوع متعمِّدًا لمواجهتهم. كيف نعلمُ هذا؟ السبب هو إنْ كان المسيح يقصدُ إيصالَ مجرَّد فكرة وجوده قبل إبراهيم، لكان ما قاله توظيفًا خاطِئًا لقواعد اللغة وكان ينبغي أن يستعملَ الفعل بهذه الطريقة: "قبل أن يكونَ إبراهيم، أنا كنتُ". لكنَّه حينما قال "أنا كائنٌ" (أو "أنا هو") كان ينسبُ إلى نفسه مرَّةً أُخرى وبكلِّ وضوحٍ الاسمَ الفريدَ والخاصَّ بالله. وهذا ما دفعهم ليَتَناوَلوا حجارةً ليرجموه. فإنْ لم يكنْ حقًّا الله- وهم لم يعتقدوا ذلك- لكانَ جدَّفَ بأسوأ أنواع التجديف.

وجهًا لوجه مع الثالوث

لكنَّه دون شكٍّ لم يُجدِّف. بل كان مُحقًّا؛ فقد أثبتَ مِرارًا وتَكرارًا ادِّعاءه الألوهيَّة. فما إنْ تفهمُ هذا ستبدأ في ملاحظة جوانبَ جديدةٍ لأهمِّيَّة إصرار المسيح على كَونه ابن الله. لم يكن هذا مجرَّد لقبٍ ملكيٍّ؛ بل كان زعمًا من يسوع بالتَّساوي مع الله بالمكانة والشخصيَّة والإجلال. وهذا

١٢) أو بترجمة أُخرى للنصِّ الأصلّي: "أقولُ الحقَّ لَكُمْ: قَبلَ أنْ يَكونَ إبراهيمُ، أنا هُوَ" (المترجم).

١٣) يوحنَّا ٨: ٥٦-٥٨.

ما يوضِحه يوحنَّا قائلًا: "فازدادَ اليَهودُ إصرارًا عَلَى قَتلِه...لأنَّه قالَ إنَّ اللهَ أبوه، مُساوِيًا نَفسَه بالله".[١٤]

ويبقى المزيد من المعنى في هذه العبارة؛ إذ كان يسوع فيها ليس فقط يُلقَّبُ بلقبٍ ملكيٍّ أو يُخبرُ بشأن مساواته مع الله، بل أيضًا يَصِفُ فيها أيضًا علاقةً فريدةً وحصريَّة بينه وبين الله الآب. لذا قال حينًا: "فلا أَحَدَ يَعرِفُ الابْنَ إلَّا الآبُ، ولا أَحَدَ يَعرِفُ الآبَ إلَّا الابنُ وكُلُّ مَن يَشاءُ الابنُ أنْ يَكشِفَ لَه".[١٥] وأوضح حينًا آخر قائلًا:

> وَمَهما عَمِلَ الآبُ، فإنَّ الابنَ يَعْمَلُه أيضًا. الآبُ يُحبُّ الابنَ، وَيُرِيه كلَّ شَيءٍ يَعْمَلُه...لأنَّه مِثلَما يُقيمُ الآبُ الأمواتَ وَيُحيِيهِم، فَإنَّ الابْنَ أيضًا يُحيِي مَن يَشاءُ. الآبُ لا يُحاكِمُ أحَدًا، لَكنَّهُ سَلَّمَ كلَّ القَضاءِ لِلابنِ، وذَلكَ لِكَيْ يُكْرِمَ كلُّ الناسِ الابْنَ، كَما يُكرِمونَ الآبَ. فالذي لا يُكْرِمُ الابن، لا يُكرِمُ بِذلكَ الآبَ الذي أرسَلَه أيضًا".[١٦]

أرأيتَ هذا؟ ادَّعى يسوع ابن الله بكَونه الله نفسه، وأيضًا بكَونه في علاقةٍ فريدةٍ وحصريَّةٍ ومتناغمةٍ كلِّيًّا بالله الآب.

كيف يمكن هذا؟

كيف يمكن أن يكون المسيح الله ويكونَ في الوقت ذاته في علاقة بالله الآب؟ في هذه المرحلة نأتي وجهًا إلى وجهٍ مع عقيدة الثالوث

---

١٤) يوحنَّا ٥: ١٨.

١٥) متَّى ١١: ٢٧.

١٦) يوحنَّا ٥: ١٩-٢٣.

المسيحيَّة (The Trinity) والتي هي في اللغة الإنكليزيَّة دمجٌ صرفيٌّ للكلمة (Tri-Unity).[١٧] ربَّما سبقَ لك أن سمعْتَ بكلمة الثالوث، أو ربَّما سمعتَ المسيحيِّين يتحدَّثون بشأن الله الآب والله الابن والله الروح القدس، وبأنَّهم مُتَمايِزون بعضهم عن بعض- ثلاثة أقانيم[١٨] مختلفة- لكنَّهم في الوقت ذاته الإله الواحد. ليسوا ثلاثة آلهة! بتاتًا! فالكتاب المقدَّس واضحٌ من الصفحة الأولى بشأن وجودِ إلهٍ واحد، وأنَّ هذا الإله في ثلاثة أقانيمَ مُتَمايِزة.

ما أرجوه لك هو أن تجدَ أنَّ المسيحيِّين لم يختَلِقوا فكرةَ الثالوث، بل عرَّفوها ووَصَفوها وعلَّموها ودافَعوا عنها؛ لأنَّهم وَجَدوها في الكتاب المقدَّس. وأنَّهم سمِعوها في كلام المسيح عن نفسه، وعن علاقته بالآب، وعن الروح القدس. وسأستعرض هنا بإيجازٍ خلاصةَ ما سمعوه من المسيح:

١. سمعوا المسيح يشدِّد على وجودِ إلهٍ واحد.[١٩]
٢. سمعوا المسيح يخبر بأنَّه هو الله، وأنَّ الآب هو الله، وأنَّ الروح القُدس هو الله.[٢٠]
٣. ونهايةً، سمعوا المسيح يوضِحُ أنَّه والآب والروح القدس

---

١٧) الجزء الأوَّل (Tri) هو بادئة تعني "مؤلَّفٌ من ثلاثة"، والجزء الثاني (Unity) يعني "وحدة أو اتِّحاد". لذا يصير معنى الكلمة "واحدٌ من ثلاثة" (المترجم).

١٨) أقانيم: مُفردها أُقنوم. هي كلمة سريانيَّةُ الأصل معناها "شَخص"، تُستَعار في اللغة العربيَّة حينما نتحدَّث بعِلم اللاهوت لنُشير إلى أيٍّ من الآب أو الابن أو الروح القدس لمجرَّد أنَّ كلمة "شَخص" في العربيَّة شائعةُ الاستعمال عن البشر، أمَّا حينما نتحدَّث بشأن الله تعالى وبِكَونه إلهٌ واحد موجود في ثلاثة أقانيم، فإنَّنا نُفضِّل استعمالَ هذه الكلمة حتَّى لا نقعَ في خطأ مُشابَهة أمورِ الخالق بالبشر (المترجم).

١٩) مثلًا: مرقُس ١٢: ٢٩.

٢٠) مثلًا: يوحنَّا ٥: ١٨؛ ٨: ٥٨؛ لوقا ١٢: ١٠.

> ليسوا الأقنوم (أو الشخص) ذاته، بل هم مُتَمايِزون بعضهم عن بعض، وفي علاقة فريدة وحصريَّة بعضهم ببعض.[٢١]

قد تقرأ هذه النقاطَ الثلاثَ وتقول: "لا يمكنني استيعاب إمكانيَّة أن تكونَ هذه الثلاثة صحيحة في الوقت ذاته وفي الطريقة ذاتها". فلأكُنْ صادقًا معك وأقول إنَّه لا يمكنني ذلك أيضًا، ولا يمكن ذلك لأيِّ مسيحيٍّ آخر. لكنَّ فَهمي أو نُقصانه ليس أساسَ الموضوع، بل نؤمن، نحن المسيحيِّين، بالمسيح يسوع الذي علَّم هذه النقاط الثلاثة، لذا أومن بها- أومن بجميعها، حتَّى إنْ لم تتناغَمْ تمامًا ونهائيًّا في عقلي في الوقت نفسه.[٢٢]

خلاصة الموضوع هي عدم وجود أيَّة تَناقُضاتٍ منطقيَّة بين هذه النقاط الثلاث، فضلًا عن إدراكي محدوديَّة عقلي؛ فهناك الكثير من الأمور في هذه الحياة لا يمكنني استيعابها كلِّيًّا. لذا لا يصعب عليَّ تصوُّر وجود عددٍ غير محدودٍ من الأمور التي يعلمُها الخالق غير المحدود، لكنِّي لا أعلَمُها أنا. ما أعلَمُه بالتأكيد هو أنَّ المسيح علَّم عن إله واحد، وأنَّه هو والآب والروح القدس هم الإله واحد، وأنَّه والآب والروح القُدس ليسوا الأقنوم ذاته، بل في علاقة متبادلة بعضهم ببعض. لذا أدعو هذه الحقيقة المعقَّدة، كما فعل جميع المسيحيِّين على مدى التاريخ، بعقيدة الثالوث أو الوَحدة الجامِعة.

---

٢١) لاحِظِ الحديثَ بشأن العلاقة مثلًا في يوحنَّا ١٤: ١٦-١٧.

٢٢) لا يقصد الكاتب هنا أنَّ ما يؤمن به المسيحيُّون عن الله لا يُمكن فهمه أو أنَّه مجرَّد إيمان ساذج أو أعمى؛ إذ أنَّه سارَ في الصفحات السابقة ليوضحَ عقيدةَ الثالوث والإيمان المسيحيِّ بالله. غير أنَّه يحاول إيصال فكرة عدم قدرتنا على استيعاب أمور الله كلِّيًّا وبكلِّ تفاصيلها وجوانبها، وإلَّا لما كان الله أعظمَ منَّا (حاشا لله!)؛ فلاحظ ما يقولُه لاحقًا (المترجم).

الطريق الوحيد

إليك الهدفَ من كلِّ هذا: حينما تبدأ تفهم أنَّ يسوع هو الله بالحقيقة؛ وأنَّه في علاقةٍ فريدةٍ وحصريَّةٍ بالله الآب، ستبدأ أيضًا تفهَمُ أنَّك إنْ أردْتَ أن تعرفَ الإله الذي خلقك فأنت تحتاجُ لأنْ تعرفَ يسوع المسيح. ليس من طريقٍ آخر.

وما يجعلُها بِشارةً سارَّة هي أنَّ يسوع ليس فقط العظيم "أنا هو"، بل هو أيضًا واحدٌ منَّا إلى الأبد.

الفصل ٥

واحدٌ منَّا

أنكَرَ أشخاصٌ في بداية تاريخ المسيحيَّة أنَّ يسوعَ إنسانٌ حقًّا. وادَّعوا أنَّ دلائلَ ألوهيَّته كانت أقوى من أنْ يكونَ إنسانًا أيضًا، كما ادَّعوا أنَّه الله ربَّما اتَّخذ بعضَ الجِلدِ، أو أنَّه كان في حالة متوسِّطة بين الألوهة والبشريَّة، إلَّا أنَّهم لم يعترفوا أنَّه حقًّا كان واحدًا منَّا. عُرف هؤلاء الذين أنكروا الناسوت الكامل ليسوع لاحقًا باسم الدكوتيِّين (أو المشبِّهين). اشتُقَّ هذا الاسم من الكلمة اليونانيَّة الأصل دوكي (Doke)، وتعني "يُشبه أو يبدو"، وكان هذا وَصْفًا مناسبًا لادِّعائهم بشأن المسيح، إذ يرَون أنَّ المسيح لم يكُنْ إنسانًا حقًّا، بل شابَهَ البشرَ أو بدا عليه ذلك.

وفَورًا أعلَنَ المسيحيُّون بأن العقيدة الدوكيتيَّة خاطئة؛ إذ إنَّ المسيحيِّين قرأوا الكتاب المقدَّس ووجدوا أنَّ يسوع لم يبدُ إنسانًا، وكأنَّه مجرَّد خيالٍ أو شبح ما، أو كأنَّ الله اتَّخذ منظرَ الإنسان لا حقيقته. كلَّا! فلو صدَّقنا الكتابَ المقدَّس، لوجدنا أنَّ يسوعَ كان بالحقِّ إنسانًا بالتَّمام. ومع هذا، لم يُنكِرِ المسيحيُّون ألوهيَّته قَطّ، بل كانوا مُقتَنِعين أنَّ يسوعَ هو ابن الله وخالق الكون والعظيم "أنا هو". لكنَّهم كانوا مقتَنِعين كذلك أنَّ العظيمَ "أنا هو" صار واحدًا منَّا بإعجازٍ عجيب.

ليسَ مجرَّد زائر

شكَّلَتِ الرواياتُ الكتابيَّة عن حياة المسيح أساسًا متينًا يمتَلئُ بالأدلَّة على كَونِ المسيح إنسانًا مثلنا تمامًا؛ إذ يُخبرُنا الإنجيل بأنَّه جاعَ وعَطِشَ وتَعِبَ وشعرَ بالنُّعاس أيضًا (أتذكُرُ قَيلولَتَه في القارب؟). ولم يكن كما تصوَّر اليونانيُّون والرومان آلهتَهم الزائفة؛ كأنَّه أُولِيمبِيٌّ اتَّخذَ شكلَ الإنسان دون أن يكونَ كذلك بالحقيقة، أي مُتحاشيًا التحدِّيات، أو حتَّى الضَّعفات التي تأتي مع الطبيعة البشريَّة. كلَّا! كان يسوع إنسانًا بالتَّمام، وتعامَلَ مع جميع هذه تمامًا مثلنا.

ويعني هذا أنَّه جاع حين لم يَأكُل كِفايةً. وتعِبَ حين لم ينَمْ كفايةً. وحين غرز الجُنود الشَّوك في فَروةِ رأسه ودقُّوا المسامير في مِعصميه، آلمه ذلك. وحينما تُوُفِّي صاحبُه، حزِن وبكى- مع أنَّه كان مُزمِعًا أن يُقيمَه من الموت بعد بضعِ دقائقَ! كما خارت قواه أيضًا. يُخبرنا الكتاب المقدَّس عن اضطرار الرومان إلى تسخيرِ أحَدِ المتفرِّجين ليحمَلَ الصليبَ مع يسوع إلى موضع الصَّلب بعدما جَلَدوا يسوع. هناك أيضًا أحَدُ أقوى البراهين على الإطلاق: موت يسوع. لم يبدُ على يسوع الموت، ولم يمُت قليلًا أو تقريبًا، لكنْ لم تَنتهِ القصَّة بموت المسيح، إلَّا أنَّه لا سبيل للمراوَغة: لقد مات.[1]

من الضروريِّ أنْ نفهَمَ حقيقة بشريَّة يسوع، إذ يعني هذا أنَّه لم يكنْ مجرَّد زائرٍ إلى عالمنا. مع أنَّ فكرة كونه زائرًا تبدو مُبهجةً بصورةٍ ما، أليس كذلك؟ أليس مُفرحًا أن يزورَنا أعظم مَن في الوجود؟ لكنَّ هذا لم يحصل.

---

١) متَّى ٤: ٢، ٨: ٢٤، ٢٧: ٥٠؛ يوحنَّا ١٩: ٢، ١١: ٣٥، ١٩: ٣٣.

ما حصل حقًّا هو أروَعُ من هذا بمقدارٍ عظيم؛ الله الخالق، أعظم مَن في الوجود، العظيم "أنا هو" صار إنسانًا.

يسمِّي المسيحيُّون هذا الأمرَ التجسُّد. وهو مفهومٌ يعني اتِّخاذ الله، في يسوع، جسدًا بشريًّا. ولا بدَّ من الحذر هنا؛ لأنَّنا قد نسيء فَهْمَ المقصود بالظنِّ أنَّ بشريَّةَ يسوع كانت مجرَّد مسألة جِلْدٍ بشريّ، وأنَّ الله ارتدى غطاءَ إنسانٍ كما نرتدي أنا وأنت مِعطفًا، وأنَّ هذا ما كانت عليه بشريَّة يسوع. إنَّ هذا يقترب كثيرًا من الفكر الدوكيتيِّ، أنَّ يسوع كان فقط يبدو إنسانًا. لكنْ كيفما صِغنا تعريفَ الطبيعة البشريَّة، لا بدَّ أن نتَّفقَ على كون جوهرها لا يقتصر على الجلد البشريّ؛ بل ما هو أعمَقُ من هذا. والكتاب المقَّدس يُصرِّح بأنَّ يسوع كان إنسانًا حتَّى الصميم. وهذا ما دفع المسيحيِّين على مدى القرون لوَصْف يسوع بأنَّه "إلهٌ حقًّا وإنسانٌ حقًّا". ليس يسوع نصف إله ونصف إنسان، أو خليطًا من الألوهة والبشريَّة، أو شيئًا ما بين الله والإنسان.

هو الله.

وهو إنسان.

واعلَمِ التالي أيضًا: ليس هذا واقعًا مؤقَّتًا؛ فيسوع إنسانٌ الآن، ولن يتوقَّف عن أن يكون إنسانًا إلى الأبد. كنتُ أتناوَلُ طعامَ الإفطار مع صديقٍ قبل بضع سنوات حينما باغَتَت ذهني هذه الحقيقة فجأة. كنَّا حينها نخوضُ نقاشًا عن إمكانيَّة وجود حياة في الفضاء، وما إذا ذكرَ الكتاب المقدَّس شيئًا عن الموضوع، وعن النتائج المترتِّبة إذا فرَضْنا وجودَها... وهلمَّ جرًّا. فسألنا أنفسنا: إذا كان هناك فضائيُّون، وكانوا خُطاةً مثلنا، هل سيُخلِّصهم الله؟ وكيف سيقوم بذلك؟

كان ردِّي المباشر: "بالتأكيد سيفعل! سيتجسَّد يسوع كمرِّيخيٍّ ويموت لأجل خطاياهم أيضًا، وهكذا! ومن ثمَّ يقرِّر ما سيفعله مع سكَّان المجرَّة التالية". شعرتُ وكأنَّ جوابي كان منطقيًّا، لكن هل اكتشفت المشكلة فيه؟ طأطأ صديقي رأسه وقال: "لا، يا غريغ! يسوعُ إنسانٌ. دائمًا وإلى الأبد. لن يكونَ شيئًا آخر سوى إنسانٍ". لم يسبقْ لي أن فكَّرتُ في الأمر هكذا.

كلمةٌ واحدة: أحبَّنا

كان هذا حتمًا نِقاش غير مألوف، غير أنَّ الإدراكَ الذي نتج عنه أدهشَني: يسوعُ إنسانٌ، وسيبقى هكذا إلى الأبد. الذي يجلسُ في هذه اللحظة على عرش الكون هو إنسانٌ، إلى الأبد، دهرًا تلو دهر. صار الله إنسانًا وسيبقى ذلك إلى الأبد. لم يرتَدِ جِلدَ إنسانٍ كمِعطَف ليخلَعَه لاحقًا حينما يعودُ إلى سمائه. بل صار إنسانًا- قلبًا ونفسًا وفِكرًا وقوَّةً!

تصوَّر معي للحظة من الزمن كم أحبَّ ابنُ الله الناسَ ليُقرِّر أن يصيرَ إنسانًا إلى الأبد. هو الأقنوم الثاني من الثالوث المقدَّس، أزليٌّ، وبعلاقة مثاليَّة ومتناغمة وجميلة مع الله الآب والله الروح القدس، إلَّا أنَّه قرَّر أن يصيرَ إنسانًا، عالمًا أنَّه متى قام بذلك سيبقى كذلك إلى الأبد.

ليس من شيءٍ دفعَ ابنَ الله ليقومَ بهذا سوى أنَّه أحبَّنا بشَغفٍ، وهذا ما يمكن رؤيته في كلِّ تفاصيل حياته على الأرض.

يُخبِرُنا كُتَّابُ الإنجيل مرَّةً تلو الأُخرى عن تحنُّن المسيح على جميع مَن حوله. إذ يذكُر متَّى السببَ وراء سَهَر المسيح طويلًا في شفاء السُّقَماء من الجموع؛ إنَّه شفقته عليهم. وحينما نَظَر جَمعًا من أربعة آلافِ رَجُلٍ

ونسائهم وأطفالهم لم يأكلوا جيِّدًا منذ أيَّام، قال لتلاميذه: "إنَّني أُشفِقُ على هؤُلاءِ الناس، فَهُمْ مَعي منذُ ثَلاثَة أيَّامٍ ولا شَيءَ مَعهم لِيأكُلوا. وَلا أُريدُ أنْ أصرِفَهم جَوعَى، لِئَلَّا يُغْمى عَلَيهِم في الطَّريق". وحين رَسا بقاربٍ على الشاطئ واستقبله حشدٌ من أُناسٍ كانوا يتوقون إلى تعاليمه، "تَحنَّنَ عَلَيهم لأنَّهم كانوا كَخِرافٍ لا راعِيَ لها. فَابتَدأ يُعلِّمُهم أُمورًا كَثيرة".[٢]

لقي يسوعُ يومًا مَوكبَ جنازةِ شابٍّ وحيدٍ لأمٍّ أرملةٍ ليس لها مَن يُعيلُها، وإليك ما حصل عندئذٍ: "فلَمَّا رآها الربُّ تَحنَّنَ عَلَيها وقالَ لها: «لا تَبكِي». وَاقتَرَبَ وَلَمَسَ التابوتَ، فَتَوقَّفَ حامِلوه. ثمَّ قالَ يَسوعُ: «أيُّها الشابُّ، أنا أقولُ لَكَ، انهَضْ!». فَجَلَسَ الميِّتُ مُعتَدلًا، وَبدَأ يَتكَلَّم. فرده يَسوعُ إلى أُمِّه".[٣]

هناك أيضًا حينَ وَصَلَ إلى منزل صاحبه لِعازَرَ ورأى شقيقة المتوفَّى تبكي، "فَلَمّا رَآها يَسوعُ تَبْكِي هِيَ وَاليَهُودُ الَّذِيْنَ جاءُوا مَعَها، تَأثَّرَ فِي روحِهِ وَتَضايَقَ". حينئذٍ سألهم يسوع: "أينَ دَفَنتُموه؟". يُخبرنا الإنجيل أنَّهم أروه القبر، "فَبَكَى يَسوعُ"، بكى هناك أمام قبرِ صاحبه. لم يتوهَّم أيٌّ من اليهود الحاضرين حينها أنَّ ما أبداه يسوع من مشاعر هي ليست فائضًا من الأسى والحبِّ، لذا أومأوا برؤوسهم وقالوا: "انظُروا كَمْ كانَ يُحِبُّه!".[٤]

أترى مَن هو يسوع؟ لم يكُنْ رجلًا قاسيًا ماكرًا يجول قامِعًا ومطالبًا بالملك والاعتراف بالألوهة. كلَّا! بل كان رجُلًا ينبضُ قلبُه بالمحبَّة لمن حوله. كان يستمتع بإمضاء الوقت مع منبوذي المجتمع، وتَناوَلَ الطعامَ معهم وحضرَ

٢) متّى ١٥: ٣٢؛ مرقُس ٦: ٣٤؛ واقرأ أيضًا متّى ٦: ٣٤، ١٤: ١.

٣) لوقا ٧: ١٣-١٥.

٤) يوحنّا ١١: ٣٣-٣٦.

مناسباتهم، فبحسب قَوله: "لا يَحتاجُ الأصِحَّاءُ إلَى طَبيبٍ، بلِ المَرضى. أنا لَم آتِ لِكَي أدعُوَ الصَّالحين، لَكنِّي جِئتُ لِأدعُوَ الخُطاةَ إلى التَّوبة".[٥] دعا يسوع الأطفال وضمَّهم إليه وباركهم، كما وبَّخ تلاميذه لمَّا صدُّوهم عنه لمَّا كان مشغولًا جدًّا. غير أنَّه حَضَن تلاميذَه أيضًا، وكان يُمازحهم، ونادى الناسَ بأسمائهم بلُطفٍ. شجَّع يسوع الآخرين وسامحهم وقوَّاهم وطمأنَهُم وقوَّمهم. بكلمةٍ واحدة، أَحبَّ يسوع الناس.

أترى ذلك؟ حتَّى بينما صنعَ العجائب- ما يُمكن أن يصنعَه الله وحده- صنعَها بلُطفٍ وحنانٍ ومحبَّة للبشر. ما كان فقط يسوع إنسانًا؛ بل أرانا أيضًا ما ابتغاه الله للبشريَّة أن تكون، منذ البداية.

لماذا صار الله الابن إنسانًا؟

لأنَّنا احتَجْنا لأن يفعلَ ذلك

إلَّا أنَّنا نحتاج لأن نُدرِكَ إلى جانب جميع ما سبق أنَّ يسوع لم يأتِ فقط ليُرِيَنا الطبيعة البشريَّة الأصليَّة التي ابتغاها الله. بل صار يسوع إنسانًا لأنَّنا احتَجنا لأن يفعلَ ذلك. احتجنا مَن يَمثُل أمام الله بديلًا منَّا. هذا أساس ما جاء يسوع من أجله، ليكونَ ملِكًا مُحاربًا مُحِبًّا سيخلِّصُ شعبَه العزيز.

لذا فإنَّ جُزءًا ممَّا كان يعملُه يسوع حينما صارَ إنسانًا هو مُماثَلَتُنا ليصيرَ واحدًا منَّا ليكونَ له أن يُمثِّلنا. وهذا ما جعل المسيح يصرُّ أن يعمِّده يوحنَّا في اليوم الأوَّل من خدمته العلنيَّة. اعترضَ يوحنَّا في بداية الأمر؛ لأنَّه علمَ أنَّ معموديَّته كانت للتَّوبة- أي أنَّها كانت للخطاة الذين اعترفوا

٥) لوقا ٥: ٣١-٣٢.

بخطاياهم وأرادوا الرجوع عنها- وعلمَ أنَّ يسوع هو ابن الله المنزه عن الإثم، لذا فهو لا يحتاجُ إليها. لم يوبِّخ يسوعُ يوحنَّا على اعتراضه؛ إذ عَلمَ مثلما علمَ يوحنَّا أيضًا أنَّه لا يحتاجُ إلى التَّوبة عن أيِّ أمر. لكنَّ هذا لم يكن ما قصده بمعموديَّته، إذ قال ليوحنَّا: "اسْمَحْ بِذلِكَ الآنَ، لأنَّه من اللَّائقِ أنْ نُتمِّمَ كلَّ ما يَطلُبُه الله".[٦] وبكلماتٍ أُخرى: وكأنَّ يسوع كان يقول: "أنتَ مُحقٌّ، يا يوحنَّا. لستُ بحاجةٍ إلى معموديَّة التوبة، إلَّا أنَّ لديَّ غايةً أُخرى منها. أمَّا الآن، فمن الجيِّد والمناسب أن نقومَ بهذا". عُمِّدَ المسيح ليس حاجةً إلى التَّوبة من خطيَّةٍ ما، بل ليُماثِلَنا إلى التمام. كان يلاقينا حيثُ وُجِدنا، ويُرسِّخ نفسَه في تربَتِنا. كان يصنعُ لنفسه مكانًا في وَسْطِنا ويداه تُشابِك أيدي البشريَّة الآثِمة والمكسورة في السرَّاء والضرَّاء.

أتذكر ما تلى هذا؟ جاءَ صوتٌ من السماء يعترِف بيسوع أنَّه ابن الله الأزليُّ، مع تنصيبه ابن الله الملكيّ- ملك إسرائيل. ومع أنَّ هناك المزيد ممَّا يُمكن فَهمُه من هذه الكلمات الآتية من السماء، فيكفي الآن أن نفهمَ ما جعلَه من المناسب للمسيح أن يُعمَّد مع مجموعةٍ من الخُطاة: كان يتسلَّمُ منصبَ ممثِّلهُم ومَلِكهم، وبَطَلهم أيضًا.

بدايةُ الصِّراع

يُخبرنا مُرقس بعد ذلك: "واقتادَ الرُّوحُ يَسوعَ إلى البرِّيَّة وَحدَه. وَبَقِيَ هناكَ أربَعينَ يَومًا في مُواجَهَةِ تَجارِبِ الشَّيطان".[٧] كانت هذه الخطوة التالية الأمثل بعدما تمثَّل الملك يسوع دون رجعةٍ بشعبه الخُطاة، تقدَّم ليَخوضَ

٦) متَّى ٣: ١٥.

٧) مرقس ١: ١٢-١٣.

نِزالهم القديمَ بالنيابة عنهم، مُستأنفًا قضيَّتهم الخاسرة ليربَحها من أجلهم. لذا ذهب إلى البرِّيَّة لمجابهة عدوٍّ شعبه، مُبتَدئًا المعركة التي ستَستمرُّ إلى نهاية الزمان بين يسوع الملك العظيم والشيطان المشتَكي البغيض.

تنوِّه تفاصيل الحدث، حتَّى البسيطة منها، إلى أنَّ المسيح الملك كان يخوض المعركة ذاتها التي سبق وخَسِرها شعبه. لاحظْ أنَّ تجاربَ إبليس كانت في البرِّيَّة؛ والبريَّة كانت حيث تاه الشعبُ بعدَ الخروج من عبوديَّة مِصْرَ لزمانِ جيلٍ كامل، وأخفقَ إخفاقًا ذريعًا. وأمَّا أيَّام الصيام الأربعين التي صامَها المسيح فكانت تمثِّلُ السنوات الأربعين التي تاهَ فيها الشعبُ في البرِّيَّة، لذا خاضَ المسيح ما توازى مع ذلك- يومًا واحدًا مُقابل كلِّ سنة. ما يحدُثُ هنا لا يُمكن إغفاله. بمناسبة تنصيب يسوع باللَّقب، تقدَّم الآن ليَخوضَ معركةَ شعبه.

يخبرنا متَّى أكثرَ من الآخرين بشأن تجرِبة إبليس ليسوع. كانت إحدى أكثر لحظات حياة يسوع الأرضيَّة إثارةً. وبينما سدَّد الشيطان تجاربه الثلاث على المسيح، ارتفعت وتيرة الموقف عاليًا. حتَّى مواقع التجارب تحكي لنا شيئًا: الأولى على أرضيَّة البرِّيَّة، والثانية على قمَّة الهيكل، والأخيرة أعلى جبلٍ شاهق؛ وكأنَّ ارتفاع مكان الصراع كان يصاحبُ ارتفاع وتيرته.

لا تبدو تجرِبة الشيطان الأولى شيئًا يُذكر. إذ قال الشيطان فيها: "إنْ كُنتَ ابْنَ الله، فَقُلْ لِهَذه الحِجارةِ أنْ تَصيرَ أرغِفةَ خُبزٍ". لاحِظْ أنَّ أكثر من شهرٍ مضى على صيام يسوع- لربَّما كان صيامه انقطاعيًّا أو قد يكون تناوَلُ ما يكفي لإبقائه على قيد الحياة- غير أنَّه كان بالتأكيد جائعًا جدًّا. هذا فضلًا عن كونه سيصنع بعد مدَّةٍ وجيزة من المعجزات ما هو أعظم وأعجب، أمَّا

تحويل الحجر إلى خُبز فكان سهلًا. لكنْ ما الذي كان سيجعل قيامه بذلك أمرًا غير صحيح؟ الجواب يكمُن في ردِّه على الشيطان: "يَقولُ الكِتابُ: «لا يَعِيْشُ الإنسانُ عَلَى الخُبزِ وَحده». بَلْ بِكُلِّ كَلِمةٍ تَخرُجُ من فَمِ الله". لم يكُنِ الهدفُ هو ما إذا كان يسوع سيصنع أمرًا اقترحه إبليس، بل إنْ كان يسوع (كما فعل اليهود قبل ذلك) سيطالب بما يريحه ويُناسبه في تلك اللحظة أمْ سيُخضع نفسه إلى سبيل التواضع والتألُّم الذي وضعه الله الآب أمامه. في المكان الذي ارتكبَ فيه الناس الإثم مرَّة تلو الأُخرى بمطالبتهم بالإشباع الفوريِّ لرغباتهم، وَثِق يسوع الملك بالله حافظه وراعيه.

بعد تغلُّب يسوع على التجربة الأولى، راح الشيطان يجرِّبه من قمَّة الهيكل في أورشليم. كان الارتفاع يُسبِّب الدَّوخة لا محالة. ومُجدَّدًا قال شيطان: "إنْ كُنتَ حقًّا ابْنَ الله، فارْمِ بِنَفسِكَ من هنا. فَالكِتابُ يَقُولُ: «يُوصِي الله مَلائِكَتَهُ بِكَ". وَبأنَّهُم: "سَيَحْمِلونَكَ عَلَى أياديهم، لِئلَّا تَرتَطِمَ قَدَمُكَ بِحَجَر»". كان ما قاله إبليسُ يبدو معقولًا مرَّةً أُخرى، بل هذه المرَّة كان يقتبسُ الكتاب المقدَّس على مسمَع المسيح! لكنْ كما سبق وحصل، كان الهدفُ من التجربة جَعْلَ المسيح يطالب بما يناسبه بدلَ ما يُرضي الله- بأن يطالب (كما فعل اليهود كثيرًا) بما يُثْبتُ عناية الله بطريقةٍ معيَّنة. أفهمت المقصود؟ أرادَ إبليس من المسيح تمجيد نفسه بدلَ أبيه السماويِّ بإجبارِ تدخُّل أبيه السماويِّ بدلَ تصديق كلام الله. رفضَ يسوع القيام بذلك، وردَّ على الشيطان قائلًا: "يَقولُ الكِتابُ أيضًا: «لا تَمتَحِنِ الربَّ إلهَكَ»". وبكلماتٍ أخرى، يوصينا الكتابُ ألَّا نشُكَّ في الله بِطَلَبِ دليلٍ على عنايته. ثِق به وآمن بكلامه، فإنَّه سيعتني بك كيفما شاء ووقتما شاء.

كانت التجربة الثالثة الأكثر بذاءةً بين الثلاث. إذ استعرضَ إبليسُ على

جبلٍ شاهق ممالكَ الدُّنيا وأمجادَها أمام المسيح. وقدَّم عَرضَه قائلًا: "سَأُعطيكَ هَذه كلَّها إنْ سَجَدْتَ لي". يا له من عرضٍ وقح وخبيث! كان المخلوقُ يسأل خالقَه بالرُّكوع وعبادته، مقابل إعطائه جميع ما سبقَ ووعدَ الآبُ المسيحَ بِه- إنَّما دون خَوضِ طريق الآلام التي وضعَها الآب أمامه. كان اليهود قد واجهوا هذا الامتحانَ عدَّةَ مرَّاتٍ- الإغراء بجَمْع حُلفاء من الدول المجاورة القويَّة، والتآمُر والعصيان، من أجل الحصول على الأمان والمجد لأنفسهم من أيدي الآخرين بدل الله. أخفقَ اليهود في الامتحان مرَّة تلو الأخرى، أمَّا يسوع فلم يُخفِقْ. فقد أنهى العِراك بالرَّد على المجرِّب: "ابتَعِدْ يا شَيطانُ، فَالكِتابُ يَقُولُ: «يَنبَغِي أنْ تَعبُدَ الربَّ إلهَكَ، وأنْ تَسجُدَ له وَحده»".[٨]

هل أدركْتَ ما كان يسوع يفعلُه بمجابهته الشيطان في البرِّيَّة؟ كان يُحرِّض صراعَ البرِّ والطاعة الذي خسره بنو إسرائيل تمامًا قبل زمنٍ بعيد. كانت التجارب الثلاث التي ألقاها الشيطان عليه بأن لا يثقَ بالله أو يمتحنَه أو يعبده، هي إخفاقات اليهود الأشهر. كانت ضربات إبليس الأكثر نجاحًا، لذا سدَّدها هذه المرَّة على ملك إسرائيل. غير أنَّ إبليسَ هو مَن أخفق. خاضَ الملك المسيح النِّزال خطوةً بخطوة. عادَ الملك وخاض معركة شعبه الفاشلة، وانتصر.

أمَّا لوقا فَيَرِد عنه: "ولمَّا استَنْفَدَ إبليسُ كلَّ مُحاوَلةٍ لإغراءِ يَسوع، تَرَكَه إلى أنْ تَحينَ فُرصةٌ ثانيةٌ".[٩] لم تكُنِ نهايةَ المعركة، بل هناك دخلَ المعركةَ من أجل روح البشريَّة مَن يُعدُّ الأفضل والأقوى، وهي معركة كانت مستمرَّة منذ عصور خَلَتْ.

---

٨) متَّى ٤: ٣-١٠.

٩) لوقا ٤: ١٣.

الفصل ٦

انتصارُ آدمَ الأخير

غالبًا ما تمتدُّ جذور الصراعات عميقًا في التاريخ؛ فإن قرأتَ عناوين الصحف حول الحروبِ والمعارك والصراعات المستَعِرة في أيِّ يومٍ كان، ستجدها نادرًا ما نشبَتْ من العَدم. إذ تعود أحيانًا جذور هذه الصراعات إلى قرون مضت.

وهذه هي حالُ الصراع ما بين يسوع المسيح والشيطان. فحينما واجهَ المسيح الشيطان وغلبَه في البرِّيَّة، كانت هذه اللحظة أوجَ الصراع الذي دام آلاف السنين وشمل البشريَّة جمعاء. بل كانت بدايةَ النهاية لهذا الصراع. كان الشيطان يحاول مقاومة الله وخُطَطه في الأرض لقرون خلَتْ، لكنَّه وقع حينها في مواجهةٍ حاسمة مع مَن سيغلِبه غلبةً نهائيَّة. لم يكن الشيطان يجهلُ مَن يكون يسوع؛ إذ إنَّ تجرِبتَين ركَّزتا تحديدًا على هُويَّة يسوع لكونه ابن الله. لكنْ مع أنَّ الشيطانَ يعرفُ ذلك، فقد ظنَّ أنَّه يمكنه بطريقةٍ ما جعل يسوع يُخطئ. ولِمَ لا يَظنُّ ذلك؟ فكلُّ إنسانٍ آخَر في التاريخ سبق أن وقعَ ضحيَّةَ تجارِبه. لِمَ لا يقع هذا الإنسان أيضًا؟ هكذا اعتقَدَ الشيطان. كما ظنَّ هذا الكذَّابُ أنَّ الله أخطأ (وحاشا لله!) في أن يصيرَ إنسانًا، باتِّخاذ الطبيعة البشريَّة والضعفات البشريَّة

والمحدودات البشريَّة، وربَّما أخيرًا صار الله...قابلًا للهزيمة.

إلَّا أنَّ الشيطان أدركَ حتمًا في نهاية هذا اللقاء الأوَّليِّ مع يسوع أنَّ آمالَه خائبةٌ لا محالة. ولا بدَّ أن تتساءل ما إذا عَلِمَ الشيطان باقتراب نهايته بعدما رأى فشَل أفضل أساليبه الشرِّيرة. ولا بدَّ أيضًا أن تتساءل ما إذا تذكَّر الشيطان صوتَ القدير يقول لهُ قبلَ بضعِ ألفِ سنةٍ مُتوعِّدًا: "حينما يأتي الملك، أجل، ستلدَغُ عَقِبَه، لكنَّهُ سيَسحقُ رأسَكَ".[1]

حتمًا جعلَه هذا يتوقُ إلى الأيَّام التي بدت فيها الحربُ ضدَّ الله تَجري على ما يُرام.

أراد إنزالَ العليِّ عن العرش

لا يصرف الكتاب المقدَّس كثيرًا من الوقت في التحدُّث بشأن الشيطان؛ فتركيزُهُ على الله وعلاقته بالبشر، وتمرُّدهم وخطاياهم نحوه، ومشيئته في إنقاذهم ومُسامحتهم. لكنَّ الشيطان موجود أيضًا، فهو المجرِّب والمُشتكي على بني البشر، وعدوُّ الله وخُطَطه. ومع أنَّه ليس لدينا الكثير عن أصله، فإنَّ الكتابَ المقدَّس يحوي تلميحاتٍ هنا وهناك عن أصله. وتجدرُ الإشارةُ قبل كلِّ شيءٍ إلى وضوح الكتاب بشأن عدم كون الشيطان ضدًّا لله بصورةٍ ما تجعله في القوَّة أو العظمة نفسهما، بل هو مضادٌّ لله بالصِّفات. بعبارةٍ أُخرى، لا يُقدَّم الشيطان على كونه "اليانغ" الذي يُقابل "يِن" الله.[2]

ويشير أنبياء العهد القديم بالحقيقة إلى أنَّ الشيطانَ في الأصل ملاكٌ

---

١) اقرأ تكوين ٣: ١٥.

٢) اليانغ واليِن في الفلسفة الصينيَّة القديمة هما قوَّتا الطبيعة المتقابِلتان والمتساوِيَتان، وتحتاج كلتاهما إلى الأُخرى لإحداث التوازن. مثل النور والظُّلمة، والسكون والنشاط...إلخ (المترجم).

خَلَقَه الربُّ لخدمته، حالُه حالُ الملائكة الآخرين. وإليك وَصْف حِزقيال النبيِّ للشَّيطان:

”أنتَ صُورَةٌ عنِ الكَمالِ!
مَملُوءٌ بِالحِكْمَةِ، وَفائِقُ الجَمالِ.
كُنتَ فِي عَدنٍ، فِي جَنَّةِ الله.
أنتَ مُزَيَّنٌ بِكُلِّ الأحجارِ الكَرِيمة:
بِالعَقِيقِ الأحمَرِ وَالياقُوتِ الأصفَرِ وَالعَقَيقِ الأبيَضِ
وَالزَبَرْجَدِ وَالجَزْعِ وَاليَشبِ
وَالياقُوتِ الأزرَقِ وَالبَهرَمانِ وَالزُّمُرُّدِ وَالذَّهَبِ.
أُعِدَّتْ كلُّ هَذه الحِجارَةِ لَكَ،
يَومَ خُلِقْتَ.
أنتَ كَرُوبٌ حارِسٌ مُختارٌ،
وَضَعْتُكَ عَلَى جَبَلِ اللهِ المقدَّس.
تَجَوَّلْتَ وَسَطَ الحِجارَةِ البارِقَة كالنَّار.
كُنتَ مُسْتَقيمًا وكاملًا في كُلِّ طُرُقِكَ
من اليَومِ الذي خُلِقْتَ فيهِ إلى أنْ أخْطَأْتَ“.[٣]

سيتبيَّن لك بينما تقرأ سِفر حزقيال أنَّ هذا الوصفُ يتكلَّم مباشرةً عن ملكِ مدينةٍ تُدعى صور. إذ إنَّ الوصف يتقدَّمه أمرُ الربِّ لحزقيال: ”يا إنْسانُ، غَنِّ أُغنِيَّةَ رِثاءٍ عَلى مَلِكِ صُورَ“.[٤] غير أنَّ نبوَّات العهد القديم

٣) حزقيال ٢٨: ١٢-١٥.

٤) حزقيال ٢٨: ١٢.

هي رسائل غامضةٌ مدهشة، وهناك أحيانًا أكثر ممَّا يظهرُ على السطح. وهذه هي حال ما لدينا هُنا؛ إذ يتَّضح من مطلع كلمات الرِّسالة أنَّ حزقيال لا يتكلَّمُ عن ملكِ صُور فقط. فما المعنى من قوله إنَّ هذا الرَّجُل- حاكِمُ مدينةٍ ثريَّة وساحليَّة غير ملحوظة تقريبًا من الشرق الأدنى القديم- كان في عدن، وأنَّه كَروبٌ حارِسٌ مختار، وأنَّه على جبل الله المُقدَّس؟ لن يكونَ هذا منطقيًّا بتاتًا. فحتَّى لو كان تعبيرًا شِعريًّا، لكان مُبالغةً إلى حدِّ السخافة والفشل الشعريّ.

لا مجال للشكِّ أنَّ هنالك تصويرًا لشخصيَّةٍ أُخرى في هذا الكلام بطريقةٍ تبدو سينمائيَّة. كأنَّ وجه ملك صُور الشرِّير كان يعكس حينًا وجه آخرَ- وجهَ مَن يقف وراء شرِّ المدينة كلِّها، ومَن يحرِّك ذلك الشرَّ ويحرِّضه، ومَن يعكسُ الشرُّ حقيقتَه. هل ترى ما يفعله حزقيال؟ تصعيدًا لقوَّة نبوَّته ضدَّ ملك صُور، يعطينا حزقيال لمحاتٍ عمَّن يُجسِّد فِعليًّا التمرُّد ضدَّ الله: الشيطان. وهكذا تابعَ النبيُّ وصفه لسقطة الشيطان من منصبه العالي قائلًا: "جَعلَكَ جَمالُكَ مُتَكَبِّرًا، وَفَسَدَتْ حِكمَتُكَ بِسَبَبِ بَهائِكَ، ولِذا طَرَحْتُكَ أمامَ الملوكِ الآخَرِينَ، صِرْتَ مَثارًا للدَّهشة".[٥] يصوِّر نبيٌّ آخر اسمُه إشعياءُ خطيَّة الشيطان قائلًا: "كيفَ سَقَطْتَ مِنَ السَّماءِ، يا هِلالَ الفَجْر. كيفَ أُسقِطتَ إلى الأرض، يا هازِمَ الأُمَم؟ قُلتَ في نَفسِكَ: «سَأصعَدُ إلَى السَّماءِ، وَسَأرفَعُ عَرشِيَ فَوقَ نُجوم الله، وسَأجلِسُ على قمَّةِ جَبَلِ صافون حَيثُ تَجتَمعُ الآلهةُ. سَأصعَدُ إلى أعالي السَّحاب، وأصيرُ مِثلَ العَليِّ»".[٦]

خطيَّةُ الشيطان هي الكبرياء أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. ومع كلِّ جماله

٥) حزقيال ٢٨: ١٧.

٦) إشعياء ١٤: ١٢-١٤.

ورَوعته الأخَّاذين، لم يرضَ بما خلقه الله ليكونَ عليه، بل أرادَ المزيد- أراد أن "يصير مثل العليّ"، بحسب ما قاله إشعياء. أرادَ إنزال الله عن عرشه.

لذا هل من الغريب أنَّ الشيطان هاجمَ الناس بمحاولة جعلهم يتمرَّدون على الربِّ ويمشون في سبيلهم، بإعطائهم الوعد أنَّهم إذا ما عصَوا سيادة الله، فسيَصيرون هم أيضًا مثل العليّ؟

تذكيرٌ حيٌّ بالله الملك

نجدُ هذه الأحداث في سفر التكوين في بداية الكتاب المقدَّس، حيث يتَّضح لنا سريعًا سبب حاجة البشريَّة إلى يسوع المسيح. سدَّد الشيطان حينها ضربةً بإغوائه الإنسان الأوَّل ليُخطئ ظنًّا منه أنَّ ذلك سيدمِّرُ البشريَّة دمارًا نهائيًّا، وفي الوقت ذاته، يؤلِم قلب الله ويُصيبُ حتَّى أساسَ عرشه.

يشيرُ اسمُ سفر التكوين إلى فَحواه. فالأصحاحات الأولى منه تُخبرنا بكيفيَّة خلق الله الكون بأكمله-الأرضَ والبحرَ والطيورَ والحيواناتِ والأسماك- بكلمةٍ منه. ويُخبرنا السفر أنَّ الله حينما خلقَ كلَّ ما في الكون كان الكلُّ حسنًا جدًّا، وأنَّ الله توَّج جميعَ ما صَنع بخَلقِه الإنسان. لم يكُنِ الإنسانُ الأوَّلُ حَيوانًا آخر، بل كان- كما يُخبرنا الكتاب المقدَّس- مميَّزًا ومخلوقًا على صورة الله ليجعلَه على كلِّ ما صنعه. كان للإنسان مكانٌ خاصٌّ في قلب الله وفي خُطَّته. إليك ما يَردُ في سِفر التكوين عن خلق الله للإنسان الأوَّل: "ثمَّ شَكَّلَ الله الرَّجُلَ من تُرابِ الأرض، ونَفَخَ في أنفِه نَفَسَ الحَياة، فَصارَ الرَّجلُ نَفْسًا حيَّة".[٧] واللفظ العبريُّ لكلمة "الرجُلُ" هو أدام (Adam)، والذي صار فورًا اسمَ الإنسان الأوَّل- آدم.

٧) تكوين ١: ٢٧؛ ٢: ٧.

كان الله رؤوفًا مع آدم منذ البداية؛ إذ وضعه في جنَّةٍ زرعَها الله في مكانٍ فاضلٍ في الأرض اسمه عَدْن. كانت الجنَّةُ خلَّابةً يجري وسطها نهرٌ يُنمي "كلَّ شَجَرةٍ جَميلَةٍ وصالحَةٍ لِلأكل". كما كانت في وسط الجنَّة شجرتان فريدتان: شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشَّرّ. كانت حياةُ آدم في الجنَّةِ صالحةً، ما عدا هذا: كان آدم مُحتاجًا إلى رفيقٍ. وهذا ما عَلِمه الله إذ قال: "لَيسَ حَسَنًا أنْ يَكونَ الرَّجُلُ وَحيدًا. لهذا سأصنَعُ له مُعينًا مِثله". وهكذا من الطبيعيِّ أن نجدَ إثرَ هذا أنَّ الله جعلَ آدم يُسمِّي جميع الحيوانات بأسماء![٨]

إذا كنت تتساءل متعجِّبًا عمَّا حصل هنا، فاعلم أنَّك لستَ الوحيد! فالكثير من الناس أبدوا مظاهرَ الحَيرة نتيجةَ هذا الاستطراد في سَرْدِ الأحداث. كما إنَّ الكثيرين منهم، حتَّى الذين لهم أعوامٌ في الإيمان المسيحيّ، يحسبون الأمرَ قصَّةً طفوليَّةً طريفةً أو فاصلًا إعلانيًّا قبل متابعة الكلام عن خلق حوَّاء. لكنْ عليك ألَّا تنسى مبدأً مُهمًّا إذا ما أردت أن تفهم الكتاب المقدَّس: أنْ ليس في الكتابِ المقدَّس أيَّة عَشوائيَّة. يُشيرُ حدثُ تسمية آدم للحيوانات إلى أمرَين بالغَي الأهمِّيَّة: الأوَّل أنَّ الله أعطى درسًا مُهمًّا لآدم. فبعد أن عبرَتِ الحيواناتُ والطيورُ والأسماكُ والحشراتُ أمامه وأطلق عليها أسماءً مثل "نمر!" و"وحيد قرن!" و"بعوضة!"، أدرك آدم أخيرًا عدم صلاحيَّة أيٍّ منها ليكونَ رفيقًا له. فليس منها ما يشبهُه.

وفي اللحظة التي تبرهنت فيها حكمة الله ممَّا فعل، أوقعَ آدمَ في نومٍ عميق، وأخذ ضلعًا من أضلاعه وخلقَ المرأة الأولى لتكونَ رفيقةً لآدم. تخيَّل فرحةَ آدم حينما استيقظ من سباته ووجدها ماثلةً أمامه. كانت

٨) تكوين ٢: ٨-١٠، ١٨.

مثاليَّة، لا سيَّما بعدَ أن شاهدَ فَظاعةَ احتماليَّة أن يكونَ الحوت الأزرق أو الزرافة أو الخنفساء رُفقاءَ له. لذا أعرب عن رأيه قائلًا: "أخيرًا! هَذه عَظْمٌ من عِظامِي ولَحمٌ من لَحمي! سأُسمِّي هَذه «امرأةً» لأنَّها أُخِذَتْ من امرِئٍ".[٩] هذا جزءٌ ممَّا قصدَه الله بجَعْل آدم يسمِّي الحيوانات؛ إذ أراده أن يعلمَ يقينًا أنَّ المرأةَ الماثلةَ أمامه خُلقت له، بل على سبيل الحميميَّة... خُلِقَتْ منه.

لكنَّ أمرًا آخرَ كان يحدُثُ بينما كان آدم يُعطي الحيواناتِ أسماءَها. لا بدَّ أنَّ الله رَضِيَ بمشاهدة آدم يتولَّى عملًا ليس بألاعيبَ أو متعةً بالية. كان الله يُخبر آدم بهذه الطريقة أنَّ له وظيفةً يُتمِّمها في الأرض. كان آدم هو سيِّد العالم الذي أوجَده الله ليكونَ اللمسةَ الأخيرةَ في الخليقة، والمخلوق الوحيد على صورة الله. تسميةُ شيءٍ هي طريقةٌ لممارسة السلطة على هذا الشيء، تمامًا كما يتسنَّى للأبِ والأمِّ شرف تسمية أولادهما. وهكذا كان آدم يُمارس سلطتَه على الحيوانات بإعطائها أسماءً. كان يقوم بوظيفته كخليفة الله على الخليقة، وتحت سيادة الله المباشرة.

وما يزيد من أهمِّيَّة الأمر هو حقيقة أنَّ آدم أعطى المرأة اسمًا حينما رآها- "سأُسمِّي هذه امرأةً"- ولاحقًا يُخبرنا الكتاب المقدَّس بأنَّه أسماها مُجدَّدًا: "ودَعا آدَمُ زَوجَتَه «حَوّاءَ»". ترى، ما الذي يقوم به الله هنا؟ إنَّه يؤسِّسُ نظامًا متكاملًا من السُّلطةِ أُعطِيَ آدم فيه السُّلطةَ على حوَّاء، وأُعطي كلاهما، بوصفهما زوجَين، السُّلْطةَ على الخليقة كلِّها، والقصد من هذا كلِّه هو إبراز حقيقة ملكيَّة الله على الجميع. فهذا جزءٌ من السبب وراء ما عناه الله حينما قال إنَّه سيخلق الرجل والمرأة "على صورته".

٩) تكوين ٢: ٢٣.

كان الملوك المُستعمِرين يستخدمون الصور والتماثيل لتذكير الشعوب المستَعمَرة بمَن يحكُمُهم حينها، حيث كانوا ينصبونها على مُرتفعٍ عالٍ كفايةً ليراه كلُّ مَن في المنطقة. وكان هذا أشبَه بتنبيهٍ مَفاده: "هذا هو مَلِكُكُم". وهذه هي حال آدم وحوَّاء في الخليقة؛ فمهما كانت المعاني التي يتضمَّنها الخَلقُ على صورة الله، كان الإنسان يقفُ كأنَّه تذكيرٌ للكَون كلِّه بأنَّ الله هو الملك. فالسُّلطةُ التي مارَسها على الخليقة كانت أنَّهم مُمثِّلون عن الملك العظيم: الله.

وقد أثارَ هذا كلُّه غَيظَ الشيطان دون توقُّف.

كان الدمارُ كلِّيًا تقريبًا

كان هجوم الشيطان على البشريَّة محبوكًا بدِقَّةٍ بجَعْل الإنسان يتخلَّص من جميع ما صنعه الله في الجنَّة. لاحظ معي عدم اهتمام الشيطان بمجرَّد جعل إنسانٍ بسيط يُخطئُ بذنبٍ بسيط تجاه الله، بل أراد الإجهاز على هيكليَّة السلطة التي وضعها الربُّ، والإجهاز على كلِّ رمزٍ وضعه الله ليُشير لمَلَكيَّته وحُكمه. أراد قلبَ هيكليَّة الخليقة كاملةً رأسًا على عقب، من أجل أن يُهين الله (حاشا لله).

يُخبرنا الكتاب المقدَّس بشأن سَماح الله لآدم وحوَّاء بالأكل من كلِّ أشجار الخليقة ما عدا واحدة- شجرة معرفة الخير والشَّرّ. وتكمُن أهمِّيَّة هذه الشجرة في أنَّها كانت تذكيرًا للإنسان بأنَّ لسُلطته على الخليقة مُحدِّدات، أيْ أنَّها لم تكُن سيادةً مُطلَقة. لم يكن الله مزاجيًّا حينما منعَهما من تناوُلِ ثِمارها، بل كان يُذكِّر آدم وامرأته بأنَّه مَلِكُهُم، وأنَّه مع كلِّ الشرف الذي حازاه بالنيابة عن الله في حُكم الخليقة، فما زال هو الخالق والسيِّد.

وهذا ما جعل التوعُّد بعقابِ عِصيانه عسيرًا، إذ قال: "لأَنَّكَ حينَ تَأكُلُ منها، مَوتًا تَموت".[١٠] عِصيان آدم وحوَّاء لهذه الوصيَّة ما هو إلَّا محاولةً للتخلُّص من سلطة الله عليهم، في جَوهر ذلك إعلانٌ للحرب على مَلِكِهم.

تكمنُ أهمِّيَّة الشجرة أيضًا في ما يُشير إليه اسمُها. فالقُرَّاء اليهود القُدامى لسفر التكوين سيتذكَّرون فورًا أنَّ "معرفة الخير والشرِّ" هي الوظيفة الاعتياديَّة للقُضاةِ في إسرائيل، والتي مفادُها أن يميِّز القاضي الخيرَ من الشرِّ ويصدرَ الأحكامَ التي تعبِّر عن الواقع. وهكذا كانت شجرة معرفة الخير والشرِّ منصَّةً للقضاء. كانت حيث ينبغي لآدمَ مُمارسة سلطته بوصفه حاميَ جنَّةِ الله، وذلك بالتحقُّق من عدم تسرُّبِ الشرِّ إليها. وإنْ حدث ذلك، أن يضمنَ القضاء على هذا الشرِّ وطرحَه خارجًا.

غير أنَّ الشيطان نفَّذ الهجومَ هناك، مُقابل شجرة القضاء التي كانت تعملُ كتذكيرٍ لآدم بسيادة الله المطلقة. وهكذا قدَّم الشيطان اقتراحَه لحوَّاء، آخذًا هيئة حيَّةٍ، بأن تتعدَّى وصيَّةَ الله وتأكل من ثمر الشجرة. وإليك ما يُخبرنا به سفر التكوين عن اللقاء:

> "وكانَتِ الحَيَّةُ أمكَرَ الحيواناتِ البرِّيَّة التي خَلَقَها الله. فَقالَتْ لِلمَرأة: «أحَقًّا قالَ الله لَكُما: لا تَأكُلا من أشجارِ الحَديقة [الجنَّة]كلِّها؟». فقالَتِ المَرأةُ لِلحيَّة: «بل نَأكُلُ من ثَمَرِ جَميع الأشجارِ في الحَديقة، أمَّا الشجَرةُ التي في وَسَطِ الحَديقة، فقد قال الله: لا تأكُلا منها ولا تَلمَساها وإلَّا فَستَموتان!». فَقالَتِ الحَيَّةُ لِلمَرأةِ: «لَن تَموتا! لَكنَّ الله

١٠) تكوين ٢: ١٧.

يَعرِفُ أنَّكُما حينَ تَأكُلانِ منها، تَنفَتحُ أعيُنُكُما، وتُصبِحانِ مثلَ الله في التَّمييزِ بينَ الخَيرِ والشَّر». وَرَأتِ المرأةُ أنَّ الشجَرةَ شَهِيَّةٌ لِلأكلِ وَجذَّابةٌ لِلعَين، ومَرغوبٌ فِيها بِسَبَبِ ما تُعطيه من الحِكمة للآكِل منها. فأخَذَتْ من ثَمرِها، وأكَلَتْ. ثمَّ أعطَتْ لِزَوْجها الذي كانَ مَعَها، فَأكَلَ هو أيضًا".[١١]

كانت النتيجة مأساويَّة، وبدا الأمر للوهلة الأولى انتصارًا ساحقًا للشَّيطان. إذ لم يقتصِر الأمرُ فقط على إقناعه للبشر محبوبي الربِّ بعصيان إلههم بأن وَعَدهم بما ابتغاه هو من البداية، "أن يصير مثل العليّ"، بل أنجز أيضًا ما أراده منذ بداية الأمر: أن يدمِّر هيكليَّة السلطة في الخليقة كلِّها.

إليك الكيفيَّة: هل سبق وتساءلت عن سبب تجربة إبليس لحوَّاء بَدَل آدم؟ فمع أنَّ آدمَ هو مَن له السُّلطة؛ ومع أنَّ الكتاب المقدَّس يُلقي باللَّوم على عاتق آدم لما حدث، فإنَّ الشيطان جاء لحوَّاء. لماذا؟ لم يكن هذا لأنَّ الشيطان ظنَّ حوَّاء هدفًا أسهل. كلَّا! بل لأنَّ مُرادَه كان إهانةَ الله وإسقاط سلطانه بأكثر طريقةٍ مُقنعةٍ ومؤثِّرةٍ أمكنَه المُضيُّ فيها. لذا أرادَ أن يتمرَّد ليس فقط آدم على الله، بل حوَّاء أيضًا بتحريضها إيَّاه على ذلك. ولكنَّ هناك المزيد: هل سبق أن تساءلت عن السبب الذي دفع الشيطان للقُدوم إليهم على هيئة حيَّة؟ لمَ لمْ يأتِهم على هيئةِ إنسانٍ آخر، أو حيوانٍ عدا عن الحيَّة، مثل زرافةٍ أو سنجاب؟ السبب ذاته: أراد إبليس إسقاط سُلطة الله نهائيًّا وإلى التمام؛ فأتى على هيئة أحد الحيوانات التي كان لآدم وحوَّاء معًا السُّلطة عليها، ومن بين جميع هذه الحيوانات الحيَّة

١١) تكوين ٣: ١-٦.

والتي هي أدناها (بصورةٍ رمزيَّة). أترى؟ سقطت هيكليَّة السلطة كأحجار الدومينو- أدنى الحيوانات أغوى المرأة، والتي بِدَورِها حرَّضت الرجُل، والذي بدَورِه أعلنَ الحربَ ضدَّ الله.

كان الدمارُ شبهَ نهائيّ. فشل آدم في مهمَّته فشلًا ذريعًا؛ فبدل إصدار الحُكم من موضع شجرة معرفة الخير والشرِّ على الشيطان الحيَّة لشره، شاركَ إبليسَ تمرُّده على الله. وبدل أن يحميَ الجنَّة ويطرَحَ الحيَّة خارجها، سلَّمها إلى الشيطان. وبدلَ الإيمان بكلام الله والتصرُّف بحسبها، شكَّ في الله ووضع ثقته في الشيطان. وبدلَ الخضوع لله وتنفيذ دور الممثِّل الشرعيِّ عن الله، قرَّر أنَّه يُريد التاجَ الأعلى لنفسه. وكما فعل الشيطان من قبله، قرَّر آدم أنَّه يُريد أن يصير "مثل العليّ".

كابوس العالم

كانت نتيجة خطيَّة آدم كارثيَّة؛ إذ صارَ العالم بعدَها متمرِّدًا على الخالق؛ لذا قضى الربُّ بالعدل ولعن الرجُلَ وامرأته، كما لعنَ من أغواهما. وهكذا لم تعُدِ الحياةُ لدى الرجُل والمرأة جنَّةً، بل صارتْ شقاءً وإجهادًا وألمًا. صارت الولادة مؤلمةً والعملُ مُرهِقًا والأرضُ شحيحةَ الثمر والمنتَجات. والأسوأُ من هذا، انقطعَتِ العلاقةُ التي تمتَّع بها آدم وحوَّاء مع الله؛ إذ طُرِدوا من الجنَّةِ نهائيًّا وأُغلِق سبيل العودة بملاكٍ حارسٍ ذي سيفٍ ناريّ. كان هذا الانفصالُ الروحيُّ إلى جانب الموت الجسديِّ هما جَوهَر وعد الله بالموت مقابل العِصيان؛ فالإنسان قبل أن يموت جسديًّا في الوقت المعيَّن يعاني جرَّاء هذا الانفصال الروحيِّ عن الله، ربِّ الحياة، ويبدأ بالموت بالتَّدريج تحت ثِقلِ عصيانه.

تجدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ خطيَّة آدم وحوَّاء أثَّرتْ ليس فقط فيهما، بل أيضًا في نَسلهما. ومن ثَمَّ تُخبرنا الأصحاحات اللاحقة من الكتاب المقدَّس بشأن تفشِّي الإثم بين البشر جيلًا بعد جيل. فنجِدُ أنَّ قايين ابنَ آدمَ وحوَّاءَ قتلَ أخاه بسبب التعجرُف والحَسَد، ومن هناك بدأت الخطيَّة بالتشبُّث أكثر فأكثر في قلوب الناس. ومع أنَّ نسل قايين أحرزَ تقدُّمًا ثقافيًّا ببناء مدينةٍ متطوِّرةٍ تِقنيًّا وفنيًّا، فإنَّ سَرْدَ الكتاب المقدَّس للأحداث يُخبرنا بشأن تَفَشِّي الناس بالإثم، وتمسُّكهم بالطُّغيان والفجور والتمرُّد على الله، حتَّى إنَّ واحدًا من بني قايين تباهى بقَتْله رجلًا لمجرَّد أنَّ الرجلَ جرحه، وتوعَّد متفاخرًا أنَّه سينتقم لنفسه سبعًا وسبعين مرَّةً لمن يحاول إيذاءه. وهكذا جعلَ الإثمُ من العالم كابوسًا لا مفرَّ منه.[١٢]

وكانت في الوقت نفسه عاقبة الموت التي جعلها الله على آدم وحوَّاء بعَودة جسدَيهما إلى التراب تصيب البشريَّة جمعاء وليس هُما فقط. نجدُ أصحاحًا كاملًا في سفر تكوين يحوي سُلالةَ نسب آدم، وعددَ السنوات التي عاشها كلٌّ من أولاده. وما يُثير الدهشة إلى جانب عدد السنوات التي عاشوها هو نهاية كلِّ تقريرٍ عن كلٍّ منهم؛ إذ ينتهي سجلُّ كلٍّ منهم، واحدًا تلو الآخر، بالعبارة "وبعد ذلك مات". عاش آدم ٩٣٠ سنةً، وبعد ذلك مات. وعاش شيث ٩١٢ سنةً، وبعد ذلك مات. وأنوش...مات. وقينان...مات. ومهلَلْئيل ويارِد ومتوشالَح...جميعهم ماتوا، تمامًا كما قال الربُّ، وساد الموت جميعَ الناس.[١٣]

أترى جدِّيَّة الأمر؟ لم يكُنِ ارتكاب آدم للإثم فرديًّا، ولم يعانِ وحدَه

١٢) تكوين ٤: ١٧-٢٤.

١٣) تكوين ٥.

من عاقبة الإثم، بل حينما أخطأ كان يُمثِّل جميعَ مَن سيأتي بعدَه. لذا قال بولس في العهد الجديد من الكتاب المقدَّس: "لقدْ جاءَتِ الدَّينونةُ على جَميعِ النَّاس بِمَعصِيَةٍ واحِدة"، وأيضًا: "صارَ الكَثيرونَ خُطاةً بِمعصِيَةِ إنسانٍ واحِد".[١٤] مثَّلَ آدم جميعَنا، وتصَّرفَ عن جميعِنا، وتمرَّد عن جميعِنا.

غالبًا ما لا يحسبُ الناسُ هذا الأمرَ متَّسمًا بالعدل، ويقولون: "أفضِّل أن أُمثِّل نفسي بنفسي، ولا يُمثِّلني آخر". غير أنَّ من الملاحظ أنَّ هذا الموقف لم يكُن لدى أيٍّ من بني آدم. وقد يعود ذلك إلى كَونهم يدركون أنَّه وإنْ جعلهُم الله يمثِّلون أنفسهم، فهُم لن يقوموا بما هو أفضل ممَّا فعله آدم. وقد يعود ذلك أيضًا إلى إدراكهم أنَّ رجاءهم هو بإرسال الله شخصًا آخرَ- مُمثِّلًا آخرَ أو آدمَ آخر إن صحَّ التعبير- ليمثِّلهم ويُنقذهم في هذه المرَّة. فإنْ كان آدم قد مثَّل الناسَ أجمعين بالخُضوع للشَّيطان والتمرُّد على الله، فما يحتاجون إليه الآن هو مَن يُمثِّلهم في الخضوع لله وهزيمة الشيطان.

كلُّ هذا يصُبُّ هنا

ويتَّضحُ أنَّ هذا ما وعد الله بأن يفعلَه.

فقد وعد الله مباشرةً وفي أعقاب خطيَّة آدمَ وحوَّاءَ بإنقاذ البشريَّة من الهلاك بإرسال ممثِّلٍ آخر أو آدمَ آخرَ ليُمثِّلها ويفوزَ بالخلاص للنَّاس أجمعين. كانت لحظةً مُدهشةً حينما قطع الله هذا الوعد؛ إذ إنَّه قطعَه في أحلَكِ اللَّحظات، لحظة أصدر الحُكم على الحيَّة التي كانت قد أغوتْ آدم وحوَّاء ليُخطِئا. إليك ما يُخبرنا سفر التكوين بشأن ما قالَه الله:

١٤) رومية ٥: ١٨-١٩.

"لأنَّكِ فَعَلْتِ ذلك،
تَكونينَ مَلعونَةً أكثَرَ من كلِّ البَهائِمِ
ومن كلِّ الحَيواناتِ البرِّيَّة.
وكلَّ أيَّامِ حَياتِكِ،
سَتَزحَفينَ على بَطنِك،
وستَتَعَفَّرينَ بِالتُّراب.
وَسَأجعَلُ عَداوةً بَينَكِ وبَين المرأة،
وبَينَ نَسلِكِ وَنَسلِها.
سَيَسحَقُ نَسلُها رَأْسَكِ،
وَأنتِ سَتَلْدَغينَ عَقِبَه".[١٥]

هل لاحظت الوعد في نهاية الكلام؟ سيُرسِل الله في أحد الأيَّام رجُلًا يسحق رأسَ الحيَّة سحقًا. وبعباراتٍ أُخرى، سيقوم هذا الرجُل بما كان ينبغي لآدم فعله، بوَصفه ممثِّل البشريَّة، لهذا سيُنقذها من الدَّمار الذي جلَبَتْه الخطيَّة عليهم وعلى العالم كلِّه.

ومن تلك اللحظة فصاعدًا أصبح الوعد بمُمثِّلٍ آخر- بآدم آخر- رجاء البشريَّة الأعظم. وتطلَّعت الأجيال المُتعاقبة نحو اليوم الذي سيُحقِّق الله فيه وعده، كما تساءَلوا من حينٍ إلى آخر إذا ما كان هذا أو ذاك هو الفادي الموعود. فمثلًا تساءل لامَك أبو نوحٍ عند ولادة ابنه قائلًا: "لَيتَ ابْنِي هَذا يُرِيحُنا مِنْ كُلِّ عَمَلِنا وَمِنْ كُلِّ تَعَبٍ أيضًا بِسَبَبِ اللَّعنةِ التي

١٥) تكوين ٣: ١٤-١٥.

وَضَعَها الله عَلى الأَرْضِ".[١٦] لكنَّ هذا لم يحدُث. ورغم أنَّ نوحًا مثَّل الجنس البشريَّ كما فعل آدم، فإنَّه أثبتَ فَورًا بعد خروجه من الفُلك بأنَّه خاطئٌ أيضًا. فقد فشِل هذا الآدم المُعيب الآخَر تمامًا كآدم الأوَّل، وبانَ أنَّ الفادي العظيم لم يأتِ بعد.

وضع الناس على مرِّ الأزمنة المتعاقبة- ولا سيَّما في تاريخ إسرائيل- رجاءهم بتتميم وعد الله على ممثِّلٍ تلو الآخر. فقد ارتجى كلُّ جيلٍ من أيَّام موسى ويشوع وداوُد وسُلَيمان والقضاة والملوك أن يكون هؤلاء هم الشخص المرجوّ. غير أنَّ آمالهم ذهبت أدراج الريح.

حتَّى جاء يسوعُ، آدمُ الأخير الذي سيُمثِّل البشريَّة، ويقوم بما فشل آدم الأوَّل في فعله. وهذا هو السبب وراء أهمِّيَّة مواجهة المسيح للشيطان في البرِّيَّة، إذ كان يسوع ليس فقط الملك الداوديَّ- بطل إسرائيل- بل بطل البشريَّة كلِّها أيضًا. البطل الذي سينتصر حيث هُزِمَ آدم؛ الأب الأوَّل للبشريَّة.

هل تَذكُر التجارب الثلاث التي جُرِّب فيها يسوع المسيح في البرِّيَّة؟ أجل، كانت هذه التجارب أشهر ثلاثة إخفاقاتٍ لإسرائيل، غير أنَّها كانت كذلك في صُلب تجرِبة الشيطان لآدم وحوَّاء في جنَّة عدن. لاحظ صداها في تجربته للمسيح:

> حوِّل الحجارة إلى خُبزٍ، يا يسوع؛ فأنت جائعٌ. لَبِّ رغباتك الذاتيَّة الآن!
>
> انظر إلى هذه الثمرة، يا آدم؛ إنَّها حسنةُ المنظر. خُذها الآن!

١٦) تكوين ٥: ٢٩.

هل يفي الله بمواعيده، يا يسوع؟ أنا أقول إنَّه لا يفعل.
لماذا لا تَجعله يُثبت ذلك؟

أحقًّا قال الله ستموتان، يا آدم؟ أنا أقول إنَّكُما لن تموتا.
لنُجرِّبِ الله ونرَ.

اركع واعبُدني، يا يسوع، وسأُعطيك جميع ممالك الأرض.
أطعني، يا آدم. اعبُدني وسأجعلُك مثل العليِّ.

لم تكُن معركة يسوع ضدَّ الشيطان في ذلك الوقت شخصيَّةً. ومع أنَّه خاض التجربة بأن يُشابه شعبه بما خاضوه، فإنَّه قامَ بأكثر ممَّا فعله الشعب: مُقاومة التجربة حتَّى نهاية قوَّتها، فأنهكها وغَلَبها. وفي خِضمِّ معركة يسوع المسيح في مواجهة عدوِّهم الفاني، كان يقوم بمَّا كان عليهم فعله من البداية: الخضوع لله وإطاعته وإجلاله نيابةً عنهم، كونه ملكهم وممثِّلهم وبطلهم.

غير أنَّها لم تكُنِ النهاية؛ فمع أنَّ إبليس غُلب، فقد كانت اللعنة "موتًا تموت" ما زالت كالسيف المصلَت على أعناق البشر. ومع أنَّ الملك يسوع غلب إبليس بتحمُّل تجاربه حتَّى النهاية والعيش حياة بأكملها من البِرِّ أمام الله، فإنَّ العدل كان لا يزال يصرُخُ بأنَّ خطايا الشعب لا يُمكن تجاهُلها بكلِّ بساطة. فالناسُ تمرَّدوا على الخالق، كلٌّ منهم، والعدل يتطلَّبُ تنفيذ ما صرَّح الله به كعقابٍ للإثم إلى التمام: الموت والانفصال عن الله والسخط الإلهيّ. فما نقص عن ذلك كان سُيعرِّض صفات الله إلى المُساءلة.

لاحظ أنَّ انتصار الملك يسوع على عدوِّ شعبه اللَّدود لم يكن كافيًا

لتخليصِهم من آثامِهِم. ففي نهاية المطاف، كان كلُّ ما فعله الشيطان هو إغواءهم ليُخطئوا. هم الذين اختاروا التمرُّد على الله بما فعلوه. ويعني هذا أنَّ عاقبة الموت ما زالت مُستَحَقَّة وقائمة. وفي سبيل تخليص الشعب، كان على يسوع أن يُبطل اللعنة، وكان عليه أن يمتصَّ عقاب الموت وسخط الله الموجَّه ضدَّ الخطاة إلى نفسه بدلًا منهم. وأن يقف كمُمثِّلهم، ليس فقط في الحياة، بل أيضًا في الموت.

كلُّ هذا يصُبُّ هنا: إذا ما كان للشعب أن يعيش، لا بدَّ لبطلهم أن يموت.

الفصل ٧

حمل اللّه والذبيحة من أجل الإنسان

كان يوحنَّا المعمدان يَعلَمُ السببَ الذي أتى المسيح لأجله، وعَلِمَ ما ينبغي للمسيح القيام به في لخلاصِ شعبه. لذا أشارَ يوحنَّا إلى يسوع بينما رآهُ مُقبلًا إلى نهر الأردن ليعتمدَ، ورفعَ صوتَه وقال شيئًا أثارَ حماسَ الجمع، وأربكه في الوقت ذاته: "هذا هو حملُ الله الَّذي يُزيلُ خَطيَّةَ العالَم!".[١] كانت فكرةُ حملٍ يُقدَّم إلى الله ذبيحةً للتَّكفير عن الخطايا مألوفةً جدًّا لدى اليهود. لكنْ لماذا استخدمَ يوحنَّا هذا الوصفَ في الإشارة إلى شخص؟ لا بدَّ أنَّ كلامَه بعثَ فيهم الشُّؤم؛ فالجميع يعلَمون ما هو مصير الحمل المُقدَّم إلى الله ذبيحةً للتَّكفير عن الخطايا.

كان عُنق الحمل يُحَزُّ وينزف حتَّى الموت.

لا بدَّ أن يموتَ أحَدُ ما

غالبًا ما يُقال إنَّ نظام الذبائح اليهوديَّ يعود في جذوره إلى هروب الشعب من العبوديَّة في مصر، إلَّا أنَّ أعمقَ جذوره تعودُ فعليًّا إلى ما قبل ذلك-

١) يوحنَّا ١: ٢٩.

إلى جنَّة عدن، ولا سيَّما ذلك الوقت الذي توعَّد فيه الله بمُعاقَبة آدم وحوَّاء بالموت نتيجة تمرُّدهم عليه. إذا ما أردْتَ فهم القصد من الذبائح اليهوديَّة- وفوق ذلك القصد ممَّا فعله يسوع المسيح- لا بدَّ أن تعرفَ أنَّ الحُكم بالموت الذي نطقَ به الربُّ عليهم لم يكُن عشوائيًّا. بمعنى أنَّه لم يكن مُمكنًا مثلًا أن يُعاقبَهم بأن يجعلَهم ضفادعَ إذا ما أكلوا من الشجرة، أو شيئًا آخر عدا ما قالَه الله بالتَّحديد.

فالحُكم بالموت الذي أصدره الله كان مناسبًا تمامًا وصحيحًا، وكما قال بولس لاحقًا في العهد الجديد: "لأنَّ الأجرَ الذي يُدفَعُ مُقابلَ الخَطيَّةِ هو الموتُ".[٢] ليس من الصعب معرفة السبب. يجب أن نُلاحظ بدايةَ الأمر أنَّ الخطيَّة التي ارتكبَها آدم وحوَّاء لم تكُن مجرَّد خرقٍ لقانونٍ غير مُهمٍّ سَنَّه الله، بل اختاروا حينها كما سبق أن أوضَحْنا محاوَلةَ التخلُّص من سُلطة الله عليهم. وفي جوهر ذلك أعلَنوا استقلالَهم عن الله. والمشكلة هنا هي أنَّ الإله الذي أعلَنوا استقلالهم عنه هو نفسه مَن رزقَهم الحياة حينما نفخَ فيهم نسمة الحياة، وأبقاهم على قيد الحياة من حينها. لذا حينما انقطعَتْ علاقتهم به وانفصَلوا عنه مُبتَعِدين، انقطعت أيضًا صِلَتهم بالمصدر الواحد والوحيد للحياة.

ليس ذلك فحسب، بل كان أيضًا مُناسبًا تمامًا وصحيحًا أن يسخط الله على المتمرِّدين. يُخبرنا الكتاب المُقدَّس بشأن الصِّفات الكاملة لصلاح الله وبره وعدله. وعند وضْعِ هذا في الحسبان، لا ينبغي أن نُدهَشَ من رده الذي يكره الخطيَّة، والتي في جوهرها تُعدُّ قبولَ الشرِّ ورفضَ كلِّ ما هو صالحٌ وبارٌّ وعادل. دون شكّ، ليس سخطُ الله وغضبه مثل غضبنا نحنُ؛ فهو

٢) رومية ٦: ٢٣.

ليس مندفِعًا وخارجًا عن السيطرة مثل غضبنا، بل بالعكس تمامًا، فهو تصدٍّ مُحكَمٌ ومُوجَّه نحو الخطيَّة والتزامُ تدميرها. لذا قال الله لآدم وامرأته إنَّهما سيموتان إذا ما أخطأا، ومن ثَمَّ يحيا كلُّ إنسانٍ الآن تحت عقاب الموت؛ فخطايانا ومُقايَضتُنا لصلاح الله مُقابل الشرِّ الأنانيِّ جعلتنا مستحقِّين لغضب الله وسخطه، كما جعلَتْنا ننفصل عن مصدر الحياة.

هذا هو أصلُ نظام الذبائح الخاصِّ ببني إسرائيل. كان الله يعلِّمُ شعبَه أنَّ الخطيَّة بطبيعتها تتطلَّب الموتَ وتستحقُّه جزاءً لها. غير أنَّ الربَّ كان يريدُ أنَّ يعلِّم شعبَه مبدأً آخر أيضًا بواسطة الذبائح- مبدأً سيُعطيهم بصيصَ رجاءٍ في وسطٍ بدا يائسًا تمامًا: ليس على الخاطئ نفسِه دفْعَ غرامةِ الموت!

دون شكّ، يجب أن يدفعَها أحدٌ ما؛ فعاقبة الخطيَّة ما زالت الموت، غير أنَّ رحمةَ الله ومحبَّته جعلت من الممكن أن يُطبَّق حُكم الموت على بديلٍ يمثِّل الخاطئَ الذي يستحقُّ المجازاة. وإنْ فكَّرتَ في الأمر مليًّا، سترى توافُقَ هذا بصورةٍ عجيبةٍ مع عدالة الله ورحمته. وهكذا تأخذُ العدالة مجراها بأن يُدفَع أجرُ الخطيَّة، لكنَّ الخاطئ نفسه لا يموت بالضَّرورة.

لربَّما يكون عيد العبور (أو عيد الفصح اليهوديّ) أوضَحَ مثلٍ على هذا المبدأ، وهو عيدٌ أُقيم للاحتفال بتَخليص الله شعبَه من العبوديَّة في مصر. يصوِّر احتفال الفصح تلك الليلة التي نفَّذ الله فيها حُكمًا قاسيًا بالموت على شعب مِصر؛ إذ حذَّرَ الله فِرْعَون مِرارًا وتَكرارًا في غضون الأسابيع السابقة لتلك الليلة بأنَّ رفضَه إطلاقَ بني إسرائيل سيجلبُ الموتَ عليه

وعلى شعبه مِصر. كان هذا بسلسلةٍ من تسعِ ضرباتٍ مُختلفةٍ أصابَتِ الشعب، وأظهَرَ فيها الله بوضوح قوَّته وسيادتَه على مِصر. كانت هذه الضربات مواجَهةً بين الله وآلهة مِصر، أسفرَتْ عنِ انكسارهم وقَطْع الشكِّ باليقين أنَّ الله هو وحدَه الإلهُ الحقيقيُّ.

وصلت الضرباتُ إلى أوجِ حِدَّتها بالضربة العاشرة. إليك كيف وصف الله لموسى ما كان مُزمعًا أن يصنعَ بشعبِ مِصر:

> ”وقالَ الله لموسى: سآتي بضَربةٍ واحدةٍ أُخرى على فِرْعَونَ وعَلى مِصرَ. وبعدَ ذلك سيُطلقُكم من هنا. وحينَ يُطلقُكم، فإنَّه سَيَطردُكم طَردًا...وقالَ موسى: هَذا هو ما يَقولُه الله: قُرْبَ مُنتَصَف اللَّيل، سأخرُجُ إلى وَسَط مِصرَ، فيَموتُ كلُّ بكرٍ في أرض مِصرَ، ابتداءً بِابْن فِرْعَونَ الجالس على عَرشه، حتَّى بكر الجارية الجالسة خَلفَ حَجَر الرَّحَى، وكلِّ بكرٍ من الحَيوانات. سيكونُ هناكَ نُواحٌ عَظيمٌ في كلِّ أرض مصرَ لَم يَأتِ مثلُه من قَبلُ، ولَن يأتيَ. أمَّا وسَطَ بَني إسرائيلَ، فَلَن يَكونَ هناك ولا حتَّى كَلبٌ ليَنبَحَ وسطَ النَّاس أو الحَيوانات، ليَعرفُوا أنَّ الله يُميِّزُ بينَ المصريِّينَ والإسرائيليِّين“.[٣]

كانت هذه دينونةً ساحقةً سيُنزلها الله بهم، غير أنَّ وعدًا بتجنُّب شعبه منها إذا ما أطاعوه وتتبَّعوا إرشاداته.

وما أمر الله به شعبَه كان أيضًا يبعثُ على الرهبة؛ فقد أمرَهم في

٣) خروج ١١: ١، ٤-٧.

الليلة التي كان مُزمعًا أن يضربَ فيها كلَّ بكرٍ بالموت بأن يُحضِر كلُّ بيتٍ حملًا صحيحًا ليس فيه عيبٌ أو شائبة لذبحه عند العشيَّة. وتلى ذلك إقامة العائلات عشاءً من الحيوان المذبوح. وأهمُّ من ذلك، أمرَهم الله بأخذ شيءٍ من دم الحمل المذبوح ووضعه على قائمتَي باب البيت وعتَبَته العُليا. كان هذا أساسَ العملِ كلِّه؛ فالله بيَّن لهم أنَّه حينما يعبر في أرض مِصر لقَتْل كلِّ بكرٍ فيها "سيعبُرُ" عن البيوت التي يرى على أبوابها الدَّماء، ولن يضربه. وهكذا إنْ فعلوا هذا وذبحوا الحمل واختبأوا وراءَ دمه، سيُنقَذون.[٤]

توقَّفِ الآن وفكِّرْ للحظات وجيزة في اليهود وكيف انبهَروا بسَماعهم أنَّ الله كان سيجتاز بيوتَهم وقراهُم أيضًا! لم يكن الأمرُ كذلك خلال الضربات التسع السابقة. ففيها أصابت الضفادع والبَعوض والذُّباب والجراد والبَرَد والظلمة والدم في النهر والدمامل كلَّ أرضَ مِصر ما عدا المناطق التي سكنَها اليهود. وكان الله حتَّى هذه اللحظة يحرصُ على الفصل بينهم وبين المصريِّين بوُضوح، وما كان عليهم سوى مشاهدةٍ ما يحدُث. أمَّا في تلك اللحظة فقد أخبرهم الله بأنَّه ينوي الاجتيازَ وسط بيوتهم بضَربةِ الموت، وأنَّهم سيموتون كالمصريِّين تمامًا إنْ لم يُصدِّقوا الله ويطيعوه.

كانت ليلةً مُرعبةً حينما اجتاز الله وسط مدن أرض مِصر وقَتَل الأبكار واحدًا تلو الآخر عقابًا على خطايا الشعب. لا بدَّ أنَّ الأرضَ امتلأَت بصَيحاتِ المصريِّين الذين مات أولادهم الأبكار تلك الليلة. ونتساءل ما إذا صاحبَتْ صرخاتِ المصريِّين صرخاتُ النَّدم والأسى من بني إسرائيل أيضًا، من الذين

٤) خروج ١٢: ١-١٣.

لم يؤمنوا بالله وازدَروا بكلامه. لا يُطلِعُنا الكتاب المقدَّس على ذلك.

هل لاحظت ما كان الله يعلِّمه لشعبه يومها؟ فمن جهةٍ كان هذا تذكيرًا صادمًا بذنبهم هُم أيضًا. فبعد كلِّ المُجريات العجيبة التي حدثت أمامهم، أرادَ الله تذكيرَهم بأنَّهم ليسوا أقلَّ استحقاقًا من المصريِّين لعقاب الموت؛ فهُم أيضًا مُذنِبون بالإثم.

لكن من جهةٍ أُخرى، كان هناك درسٌ آخر أيضًا. فقد انطبعت في عقولهم وقلوبهم إثرَ هذا أهمِّيَّةُ الذبيحة البديلة ومعناها. لم يكُن ذبحُ الحمل عملًا نظيفًا، بل هو عملٌ دمويّ. كان الأب يجثو على رُكبتَيه ويتناول سكِّينًا ويحزُّ عنقَ الحيوان، فتسيل الدماء على الأرض حتَّى يلفظَ الحيوان أنفاسَه الأخيرة ويموت. وبينما كان هذا يحدث، كانت أعيُن أفراد العائلة تنتقل لا محالة من الحيوان المُحتَضَر إلى ولدٍ صغير عالمين أنَّ هذا الحمل مات لئلَّا يموتَ الفتى يشوع. كان الحمل يموت بدلَ يشوع. كان الله يعلِّم شعبَه بطريقةٍ جادَّةٍ دمويَّة بأنَّه لن- بل لا يمكنُ له أن- يَمْسح خطاياهم ببساطة. كان لا بدَّ من سَفْك الدِّماء بالمُقابل. ولا بدَّ من مَوتِ أحَدِهم، لأنَّ هذا هو العقابُ الذي تتطلَّبه الخطيَّة.

ومن ثَمَّ بعدَما رشَّ الأبُ عتبةَ الباب بالدَّم، وحمل الفتى يشوعَ بين ذراعَيه وأغلقَ الباب من خلفه، كانت العائلةُ كلُّها تتعلَّمُ درسَ ذنبها واستحقاقها للموت. ما كان الله ليعفي عنهم بسبب براءتهم الذاتيَّة وكأنَّهم بشكلٍ أو بآخَر أقلُّ استحقاقًا للموت من المصريِّين. كلَّا! كان سيعبُرُ عنهُم لأنَّ آخرَ ماتَ بدلًا منهم. ورَيثَما عبرَ الله عنهُم حاملًا سَيفَ العِقاب في يده، كانت ثِقتُهم في دمِ الحمل.

لن يكونَ هذه المرَّة حيوانٌ

شرَّع الله بعد ذلك نظامًا مُتكاملًا من الذبائح الحيوانيَّة لتعليم شعبه أنَّ خطاياهم الشرِّيرة بطبيعتها يُمكن وضعها على بديلٍ ليدفعَ ثمنها. لكنَّه شرعَ أيضًا بتعليمهم بأنْ ليسَتِ الحيواناتُ فقط مَن تحمل عقابَ خطاياهُم.

أحد أبرز الأمثلة على هذا يمكن إغفاله بسهولة، لكَونه غير ملحوظ، غير أنَّه أحد أهمِّ الأفكار وأعمقها في العهد القديم. فبعد أن خرج الشعب من أرض مصر، أمضوا زمنًا طويلًا في التنقُّل في البرِّيَّة (وصدِّق أو لا تُصدِّق) وهم يتذمَّرون بأنَّ الله لم يكن يُعطيهم طعامًا وماءً كافِيَين أو حتَّى جيِّدًا بصورةٍ كافية. ورُغمَ أنَّ الله وفَّر لهم ذلك مِرارًا وتَكرارًا، فإنَّهم ظلُّوا يتذمَّرون ويتأفَّفون. وفي الأصحاح السابع عشر من سفر الخروج، يقصُّ علينا الكتاب المقدَّس حادثةً قد تبدو للوهلة الأولى مثل غَيرها من المرَّات التي وفَّر فيها الله الماء بعد أن تذمَّر اليهود عليه. لكنَّ الحادثةَ كانت أهمَّ من ذلك بكثيرٍ؛ إذ إنَّ الله كان على وشك أن يُعلِّم شعبَه درسًا مُذهلًا وغير متوقَّع.

كان الشعب قد أتى في ذلك اليوم إلى موضعٍ اسمهُ رفيديم، وتذمَّروا على الله كما هي الحالُ من قبل، مُدَّعين أنَّه جاء بهم إلى البرِّيَّة ليقتُلَهم عَطَشًا. غير أنَّ تذمُّر الشعبِ وَصَلَ إلى مرحلةٍ جديدة هنا في رفيديم. إذ يُخبرنا الكتاب المقدَّس بوُضوحٍ أنَّ الشعبَ أرادوا مُحاكمةَ الله! أجل! كان موسى على وشك التعرُّضِ للرَّجْم، لكنَّه المُتحدِّثُ الرسميُّ عن الله. لم تكن مشكلةُ الشعب الحقيقيَّة مع موسى، بل مع الله. فهو مَن جاء بِهم إلى البرِّيَّة ليَموتوا كما ادَّعوا، وها هُم الآن يتَّهمونه بالقتل!

يصفُ لنا الكتاب المقدَّس إرشاداتِ الله لموسى في صورةِ اتِّهاماتهم ضدَّه. فيأمُر موسى بأن يَجمع الشعبَ ليَقِفوا أمامه وأمام جميع شيوخ الشعب. كان القصد من جَمْع الشيوخ هو أنَّهم قُضاةُ الأُمَّةِ الذين يحكمون في القضايا التي تُطرَح أمامهم، تمامًا كهذه. ثمَّ أمرَ الله موسى بإحضار عصاه. والقصدُ من ذلك مُهمٌّ أيضًا؛ لأنَّ عصا موسى ليست كأيِّ عصًا. فهذه العصا التي ضرب بها موسى نهر النيل وحوَّل مياهَه دمًا، وضرب بها أيضًا الرَّمل وحوَّله بَعوضًا، والعصا التي رفعها على البحر الأحمر ليجعلَه ينهال على مركبات المصريِّين الحربيَّة. وبعباراتٍ أُخرى، كانت العصا التي استخدمها موسى لإنزال القِصاص.

قطع المشهدُ الشكَّ باليقين. اجتمعَ الشعب وجاء الشيوخُ وأُحضرَت عصا القضاء. وكأنَّ الله كان يقولُ لشعبه المتمرِّد المتذمِّر: "أتُريدون مُحاكمة؟ حسنًا، إليكم بمحاكمة". كان أحدٌ ما على وشك التعرُّض للحُكم، وكان القضاءُ على وشك أن يُنزَل.

لكنْ على مَن؟ ليس على الله، بل على اليهود بسبب تمرُّدهم وتذمُّرهم وعدم أمانتهم بعد أن كان الله أمينًا معهم مرَّة تلو مرَّة. كانت عصا القَضاء على وشك أن تضربَهم.

لكنَّ تحوُّلًا مُدهشًا في مجرى الأحداث يُغفله كثيرٌ من المسيحيِّين القُدامى جرى بعد ذلك. انظر إلى ما يُخبرنا به الكتاب المقدَّس:

> "فصَرخَ موسى إلى الله وقالَ: «ماذا أفعَلُ بهذا الشَّعب؟ إنَّهُم يَكادونَ يَرجُمونَني». وقالَ الله لموسى: «مُرَّ من أمام الشَّعب، وخُذْ معكَ بعضَ شُيوخ إسرائيلَ. وخُذْ بيَدكَ

عَصاكَ التي ضَرَبتَ بها نهرَ النِّيل، واذهَبْ. سأقفُ أمامَكَ هناكَ على صَخرة حوريب. فحينَ تَضربُ الصَّخرةَ، سيَخرُجُ منها ماءٌ ليَشرَبَ الشَّعب». ففعَلَ موسى ذلكَ أمامَ شُيوخ إسرائيل".[٥]

هل لاحظت ما قيل في منتصف النصِّ السابق؟ هل لاحظت مَن ضربَتْ عصا القَضاء؟ ضربت الصخرةُ، أجل. لكن مَن الذي كان يقفُ على الصَّخرة؟ الله مَن وقف عليها، إذ قال:"سَأقفُ أمامَكَ هناكَ على صَخرة حوريب. فحين تَضربُ الصَّخرةَ..." وبكلماتٍ أخرى، كأنَّ الله يقول: "بدلَ أن تضربَ شعبي بعصا القضاء الذين استحقُّوا ذلك بسبب تذمُّرهم وعدم أمانتهم، اضربني أنا!". وهذا ما فعله موسى، وما النتيجة؟ تدفَّقتِ الحياة بأن خرج ماءٌ من الصخرة!

كان مبدأ التعويض أو البدليَّة يُرفعُ إلى مستوًى جديدٍ تمامًا. وهذه المرَّة ليس البديلُ حيوانًا، بل الله نفسُه هو مَن اتَّخذ الحُكمَ على نفسه واللعنة التي كان ينبغي أن تنزلَ بشعبه! ونتيجةَ هذا كانت لهم الحياة بدلَ الموت.

الملك العظيم والعبد المتألِّم

استمرَّ الله على مدى قرون بتعليم شعبه مبدأ البدليَّة أكثر فأكثر حتَّى جاء النبيُّ إشعياء ووصل النقاط بعضها ببعضٍ أكثرَ من غيره في العهد القديم. سبقَ ونظرنا إلى نبوَّة إشَعياء بالملك الإله الذي سيملُك على الأرض

٥) خروج ١٧: ٤-٦.

بعدلٍ وبرٍّ كاملَين، ويُخلِّص شعبَه من أعدائهم.[٦] كان هذا مجيدًا بحدِّ ذاته. غير أنَّ النبيَّ أنبأ أيضًا أنَّ هذا الملك الإله- المدعوَّ "الله القدير"- سيلعبُ أيضًا دَورَ العبد المتألِّم الذي سيحمل خطايا شعبه ويقبَل عقابَ الموت الذي استَحقُّوه.

إليك وصفَ إشعياء لما سيفعله هذا الإله الملكُ والعبد المتألِّم:

"لكنَّهُ رفعَ اعتَلالاتنا،
وحملَ أمراضَنا.
ونحنُ ظَنَنَّا أنَّ الله يَضربُه ويُذلُّه.
لكنَّه جُرِحَ بسببِ مَعاصينا،
وسُحقَ بسَبَب آثامنا.
وَقعَت عليه عُقوبتُنا فنَعُمنا بالسَّلام.
وشفينا بسبب جُروحه.
كلُّنا ضَلَلنا كالغَنَم،
وكلُّ واحدٍ ذَهَبَ في طَريقه.
لكنَّ الله وضعَ عليه عقابَ آثامنا جميعًا...
سيَرى ثَمَرَ مُعاناته
وسيُرضيه أن يعرفَ ذلك.
لأنَّ عَبدي البارَّ سيُبرِّرُ كثيرين،
وسيحملُ ذُنوبَهم".[٧]

٦) إشعياء ٩: ٦-٧.

٧) إشعياء ٥٣: ٤-٦، ١١.

أفهمتَ ما يقولُه إشَعياء هنا؟ يقول إنَّ هذا الملك العظيم سيؤسِّس مملكةَ برٍّ مثاليّ، وسيكونُ أيضًا العبد المتألِّم الذي سيأخذُ قِصاص الموت على عاتقه وبدلَ شعبه. سيحمل اللعنة التي وقفت ضدَّهم، ليؤهِّلَهم ليَحيَوا معه إلى الأبد في المملكة التي سيُؤسِّسها.

كان يعلمُ السببَ الذي أتى لأجله

تبادَرَ كلُّ هذا إلى ذهن يوحنَّا المعمدان حينما صاح في ذلك اليوم قائلًا: "هذا هو حمَلُ الله الذي يزيلُ خطيَّةَ العالَم".[٨] كان على درايةٍ أنَّ المسيح هو الذبيحةُ الكاملة، وأنَّه سيُقدِّمُ نفسَه للموت بدلَ شعبه. إنَّه العبد المُتألِّم الذي أُخبر به قبل زمنٍ طويل، والذي سيُسحَق من أجل آثام شعبه.

وهذا ما عنيناه حينما قُلنا إنَّ يسوع لم يعتمِدْ بسبب حاجَتِه إلى التَّوبة من خطاياه الشخصيَّة، بل ليتمثَّل ويوحِّدَ نفسه مع الخُطاة الذين أتى ليُخلِّصهم بوصفه ابنَ الله، والبديلَ والملكَ والبطلَ وعبد الربِّ المتألِّم. هذه هي الناحية الأخيرة ممَّا عناه الصوت السماويُّ الذي قال: "أنتَ هو ابني المحبوب. أنا راضٍ عنكَ كلَّ الرِّضا".[٩] يتردَّد على مسامعنا في عبارة "أنا راضٍ عنكَ كلَّ الرِّضا" صدى كلمات سفر إشعياء التي قالها الربُّ عن العبد المتألِّم.

أرجو أن يُمكِّنك هذا من رؤية مدى استثنائيَّة ما حصل على جانب النهر في ذلك اليوم. كان يسوعُ في المعموديَّة حينما كان الصوتُ السماويُّ يسلِّمُه هذه الأدوار- أو المناصب- التي أرادها له الله من البداية. ويمكن

٨) يوحنَّا ١: ٢٩.

٩) متَّى ٣: ١٧.

القول أيضًا إنَّ هذا الصوتَ السماويَّ كان إعلانَ الله عن تتويج ثلاثيٍّ ليسوع: تاجُ السماء كَونه ابن الله، وتاجُ الحُكم كونه الملك المنتظر، وتاجُ الشوك كونه العبد المتألِّم الذي سيخلِّص شعبَه بالموت عنهُم.

ومع هذا لم يكن أيٌّ ممَّا سبق وذكرناه مُفاجئًا للمَسيح؛ إذ كان يعلم مُسبَّقًا القصدَ من مجيئه، وما كان ينبغي فعله في سبيل خلاص شعبه من عاقبة خطاياهُم، وأنَّه ينبغي أن يحملَ غضبَ الله مكاننا. هذا ما عناه حينما قال إنَّه جاء "ليُقَدِّمَ حَياتَه فديَة لتَحرير كَثيرين"[١٠]، وما عناه حينما ناولَ تلاميذه الكأسَ من نِتاج الكرمة في العشاء الأخير قبل صَلبه وقال لهم: "اشرَبوا من هَذه كلُّكُم. لأنَّ هذا هو دمي، دَمُ العَهد الذي يُسفَكُ من أجل كثيرين، لمَغفرة خَطاياهم".[١١] كانت تلك كلماتٍ مجازيَّةً تُشيرُ إلى واقعٍ حقيقيٍّ واضح وُضوحَ الشمس. كان يسوع على وشك الموت. وبعد أن التقطَ ابنُ الله الأزليُّ والملكُ المنتظر عدَّة الحرب وانتصر في معركة شعبه الخاسرة مع تجارب الشيطان، كان في تلك اللحظة مستعدًّا لدَفْع ثمن خطاياهم. كان العبدُ المتألِّم على وشك أن يحملَ آثامَ شعبه، ويموت عنهُم ليجعلَهم أبرارًا أمام الله.

ليس ثمَّة سبيلٌ آخر

تناوَلَ يسوع العشاء في الليلة السابقة لموته في جلسةٍ أوضحَ فيها جليًّا ما عناه من كلِّ ما سبق. كانت تلك الليلة وقتَ احتفال اليهود بعيد العبور (أو عيد الفصح اليهوديّ)، حيث يتناوَلون فيها وجبةً من الطعام بعضهم

١٠) متَّى ٢٠: ٢٨.

١١) متَّى ٢٦: ٢٧-٢٨.

مع بعض يستذكرون فيها إنقاذَ الله لهم بقُدرةٍ عظيمةٍ من العبوديَّة في مصر. وهذا الخلاص العظيم هو ما احتفل به يسوع المسيح مع تلاميذه في تلك الليلة. غير أنَّ أمرًا ما كان يجول في خاطر يسوع؛ فإذ شاركَ هذه الوجبة معهم كان جليًّا بأنَّ ما على وشك الحدوث هو خلاصٌ أعظم- خلاصٌ سيُنقذ شعبَ الله ليس فقط من عبوديَّةٍ بشريَّة، بل عبوديَّتهم للخطيَّة والموت والانفصال عن الله. ما كان على وشك الحدوث هو فعلُ محبَّةٍ أعظمُ من الخروج من مصر. وإليك ما قالَه المسيح في العشاء الأخير:

> "وبينَما كانوا يَأكُلونَ، أخَذَ خُبزًا وبارَكَ الله، وقسَّمَه وأعطَى التَّلاميذَ وقالَ: «خُذُوا كُلوا، فهَذا هو جَسَدي». ثمَّ أخَذَ كأسَ نَبيذٍ، وشكرَ، وأعطاها لهم وقالَ: «اشرَبوا من هَذه كلُّكُم. لأنَّ هَذا هو دَمي، دمُ العَهد الذي يُسفَكُ من أجل كثيرينَ، لمغفرةِ خَطاياهم»".[١٢]

آلَتْ محبَّةُ يسوع لتلاميذه إلى هذا: سفكِ دمه طَوعًا من أجل خلاصهم. وسيكونُ مَوتُه سببَ حُرِّيَّتهم، وغُفران خطاياهم جرَّاء تقاعصهم وتمرُّدهم على الله.

ما سنَستعرضُه الآن من الكتاب المقدَّس هو أحد المشاهد الأكثر هَيبةً وإجلالًا؛ لأنَّه حميمٌ وأليمٌ جدًّا. أخذَ يسوعُ تلاميذَه بعد العشاء إلى بُستانٍ يُدعى جَثسَيماني، وذهب ليصلِّيَ هناك عالمًا ما كان بانتظاره. كانت الصلاة التي رفعَها يسوعُ هناك في البُستان صلاةَ ألمٍ وحُزن، غير أنَّها أطلَعَتْنا مجدَّدًا على محبَّة المسيح التي دفعَتْه ليَحتملَ آلامَ الصليب: "وسجدَ

١٢) متَّى ٢٦: ٢٦-٢٨.

وَوَجهُه إلى الأرض وبدأ يُصلِّي: «يا أبي، إنْ كانَ مُمكنًا، فَلتَتَجاوَزني هذه الكَأسُ. لَكن لَيسَ كما أريدُ أنا، بل كما تُريد»".[١٣]

كان يُمكنُ أن تتجاوَزَ الكأس- كأس غضب الله التي كان يسوع على وشك أن يشربَها- عن يسوع. كان يمكنُ له أن يرفضَها ولا يشربَها، وذلك بأن يتركنا، نحن الخطاةَ، نقع تحت العقاب الموت والغضب الإلهيِّ إلى الأبد. وحينما أرادَ أحَدٌ من تلاميذه الدِّفاع عنه وإبعاد الذين جاءوا ليصلبوه، وبَّخه يسوع وقال إنَّه ليس مُحتاجًا إلى مَن يدافع عنه، إذ يمكنُه أن يطلبَ اثنتَي عشرةَ فرقةً[١٤] من الملائكة. اثنا عشر ألفًا من الملائكة الحاضرة في أيَّة لحظةٍ للوقوف في وجه الجنود، وإحضار يسوع إلى السماء في غضون همسةٍ من شفتَيه. وهناك سيَحظى بالمجد وتسبيح ألوفٍ وربوات من الملائكة التي ستُكرِّمه إلى الأبد لأنَّه ابن الله كاملُ العدل والبرّ.

غير أنَّه لم يُنادهم، بل تركهم واقفين على عتبة السماء حائرين ممَّا يحدث؛ لأنَّ يسوع والآب السماويَّ عزما على إنقاذ شعبه الآثم. وفي سبيل تحقيق ذلك كان لا بدَّ أن يشربَ يسوعُ كأس غضب الله. أمَّا يسوع فكان في البستان وكأنَّه يسأل قائلًا: "هل ثمَّة سبيل آخر لإنقاذهم، يا أبي؟ هل يمكن إنقاذ هؤلاء دون أن أقاسيَ عقابَ الموت والانفصال عنك؟". والردُّ كان صمتًا يصرخ: "لا! ليس ثمَّة سبيل آخر".

لماذا؟ لأنَّه لا يمكن أن يكنسَ الله الخطيئة ويخفيها تحت البساط. لا يمكن أن يتجاهلَها أو يتظاهَرَ بأنَّها لم تحدُثْ قَطّ، أو يغفرَها ببساطة ودون حساب. ففوق كلِّ شيءٍ، وكما يطلعنا ناظمُ المزمور: "العَدلُ والإنصافُ

١٣) متّى ٢٦: ٣٩.

١٤) كانت تتألَّف فرقة الجيش آنذاك من ألفِ جُنديّ (المترجم).

يَسندان عَرشَه".[١٥] لذا اختار يسوع طَوعًا أن يشرب كأس غضب الله، لأنَّه أحبَّنا وأراد أن ينقذنا. أجل! ولأنَّه أيضًا أحبَّ الله الآب ولم يُرد أن يتلاشى مجده في الأثناء. وهكذا سنخلُص نحن وسيتمجَّدُ الله.

شريطةَ أن يموتَ الملك يسوع.

بينما تعلَّق هناك ليموت

سيبقى حُكم الصلب الذي مارسه الرومان أكثر طرق الإعدام بشاعةً وإذلالًا شهدَها العالم يومًا. كان فظيعًا حتَّى إنَّ أفرادَ الطبقة البرجوازيَّة والمتحضِّرة في المجتمعات الرومانيَّة واليونانيَّة لم يتجرَّأوا على لفظ كلمة "الصليب" في المجالس المحترمة. كانت هذه كلمةً بغيضةً تُشير إلى أحقر أساليب الموت وأبغضها.

لم يكن الصَّلبُ في العالم الرومانيِّ حَدَثًا سرِّيًّا، بل كان علنيًّا مباشرًا بصورةٍ مُؤلمة. والقصد منه هو إخضاع الجموع للسُّلطات بالتَّخويف. فقد حرصَ الرومان على نصب الصُّلبان التي تحملُ أجسادَ المحتَضَرين الشاحبة والمشوَّهة- أو حتَّى أجساد الموتى العَفِنة- بانتظامٍ على جوانب الطرق المؤديَّة إلى المُدن. بل حدَّدوا أوقاتًا مُعيَّنة للصَّلب تتوافق مع الأعياد الدينيَّة والمدنيَّة ليشهدَ أكبر عددٍ من الناس الرُّعبَ الحاصل. كان الصلب عقابًا منتشرًا في أرجاء الإمبراطوريَّة بأكملها، ويستهدفُ آلافًا من القتلة واللصوص والخَوَنة، ولا سيَّما العبيد، ليصلبهم بقسوةٍ على مرأًى من الجميع. كان رُعب الصلب لا مفرَّ منه في الحياة اليوميَّة تحت السلطة الرومانيَّة التي قَصَدت ذلك تمامًا.

١٥) مزمور ٨٩: ١٤، ٩٧: ٢.

ورُغمَ أعداد عمليَّات الصلب وتكرارها، فالأمرُ المفاجئ هو نُدرة السجلَّات التي توثقُّها. والسبب مرَّةً أُخرى هو نُفور الجميع من التحدُّث بشأنها. ولمَ لا؟ فالصليب كان فرصةً للمُعذِّبين أَباحَتها الحكومة الرومانيَّة بل شجَّعتها أيضًا، ليمارسوا فيها أشرسَ وأقسى ضرباتٍ في مُخيَّلتهم، ممَّا يبيِّنُ لما كانت أغلبُ السجلَّات التي تتحدَّث بذلك قصيرة، والكتَّاب عادةً ما ينوِّهون إلى سوء ما حصل بدل أن يُعطوا أيَّ تفصيلٍ عنه. وكأنَّهم يقولون: "أنت لا تُريد أن تَعلم".

جسدٌ ممزَّقٌ على خشبة، ومساميرُ حديديَّة اخترقَتْ ما بين العظام والأعصاب التالفة، ومفاصلُ مخلوعة إثر ثقل الجسد شبه الميت، وذلٌّ على مرأًى من العائلة والأصدقاء والعالم أجمَع. هذا هو الموت على الصليب. أو ما دعاه الرومان "بالعمود الشائن" و"الخشبة القاحلة" وبلغتهم "ماكسيما مالا كروكس" (maxima mala crux). ويلفظُه الرومان باشمئزازٍ قائلين: "ستاوروس" (stauros). ليس من العجب أنَّ أحدًا لم يرغب في التحدُّث بشأنه، والآباء والأمَّهات غطُّوا أعيُن أطفالهم عن مشاهدته. كان الستاوروس مثيرًا للاشمئزاز، وكذلك الذي مات عليه كان مُجرمًا كريهًا لا فائدة منه سوى التعلُّق هناك، ليكونَ تحذيرًا باليًا وعَفِنًا لكلِّ مَن يسيرُ على خُطاه.

هكذا مات يسوع.

غير أنَّ صَلبَه كان مُختلفًا عمَّا سبق وشاهدَتْه أعيُن الناس. كان مشهدُ الصلب هذا ينبئُ بأنَّ الرجُل المعلَّق على هذا الصليب كان استثنائيًّا. أمرٌ غير اعتياديٍّ كان يحصل في تلك الأثناء.

في بادئ الأمر، كانت تصرُّفات يسوع وأقواله بينما كان على الصليب

غير مسبوقة. فقد كان أغلب المُجرمين الذين يصلبهم الرومان يُمضون ساعاتهم الأخيرة يرجون الرحمة أو يشتمون الجنود والمتفرِّجين من حولهم أو يئنُّون متألِّمين، وهذا على خلاف يسوع. فبينمَّا كان يسوع على الصليب، احتمل استهزاءَ قادة اليهود به، وتهكُّم الرجال الذين صُلبوا إلى جانبه، ونظرات الجنود الرومان الباردة والمجرَّدة. بل أبدى فوق هذا المحبَّة للَّذين صَلَبوه. وحينما عَلم أحدُ الرجال المصلوبين إلى جانبه مَن يكون وآمن به، قال له يسوع: "أقولُ الحقَّ لَكَ، اليَومَ ستَكونُ مَعي في الفِرْدَوس".[١٦] وبينما اقترع الجنود أسفل الصليب على لباسه، رفعَ عَينَيه إلى السماء وصلَّى: "يا أبي، سامحهُم لأنَّهُم لا يَدرُونَ ما يَفعَلونَ".[١٧] إنَّ هذا أمرٌ مثيرٌ للدَّهشة! فبينما كان يسوع مصلوبًا لم تبطُل محبَّته ولا اهتمامه بخلاصِ مَن حوله وإعطائهم رجاء.

كما احتمل يسوع السخرية التي لم تتوقَّف، والتي بدأها الرومان بعدما جلدوه؛ إذ ألبسوه رداءً أرجوانيًّا، ووضعوا في يده عصًا لتبدو كصَولجان، وصنعوا تاجًا من الشوك وغرزوه في رأسه. ثمَّ انحنوا له وهم يضحَكون قائلين: "يعيشُ مَلكُ اليَهود!". كان القصد من إهانة يسوع هو إهانةَ الشعب اليهوديِّ كلِّه معه، ومع هذا أطلق الشعبُ اليهوديُّ صَيحاتِ الاستهزاء نحو السيِّد المسيح تمامًا كالجنود الرومان بينما تعلَّق هو على الصليب. وقال أحدهم: "إنْ كُنتَ ابنَ الله، فَخلِّص نَفسَكَ، وانزل عن الصَّليب!". وصاح آخر قائلًا: "خلَّصَ غَيره، لكنَّه لا يَستطيعُ أن يُخلِّصَ نَفسَه!".

---

١٦) لوقا ٢٣: ٤٣.

١٧) لوقا ٢٣: ٣٤.

وإذِ انهالَتْ الصَّيحات على يسوعَ، لم يَقُل كلمةً في المُقابل، عالمًا أنَّ بعضًا ممَّا قالوه مُستهزئين كانَتْ فيه أوصافٌ صحيحةٌ لم يقصِدوها. لكنَّه احتمل.[١٨]

ثمَّ خيَّمت الظلمة على المكان. إذ يُخبرنا كُتَّابُ الأناجيل بأنَّ ظلمةً حالكةً لفَّتْ أورشليم من الساعة السادسة حتَّى التاسعة، أي ما بين الظَّهيرة والساعة الثالثة بعد الظُّهر بالتَّوقيت الحاليّ. كثيرًا ما حاول المفسِّرون جاهِدين تفسيرَ تلك الظاهرة: لربَّما كان كسوفًا، أو عاصفة رمليَّة، أو نشاطًا بُركانيًّا. غير أنَّ المتفرِّجين أدركوا فورًا أنَّه عملٌ من الله. فيقول لوقا ببساطة: "فلَم تُرسلِ الشَّمسُ ضَوءَها طَوالَ ذَلكَ الوَقت".[١٩]

وفي الحقيقة، كانت الظلمةُ التي لفَّت المنطقة إشارةً أكيدة إلى ما كان يحدُث على الصليب بينما لفظَ يسوع أنفاسَه الأخيرة. إذ يصوِّرُ الكتاب المقدَّس الظلمةَ مرَّة تلو المرَّة إشارةً إلى دينونة الله. كأنَّها ظُلمة الموت والقبر. وهناك على الجُلجُثة حلَّتْ ظُلمةُ الدينونة على العبد المتألِّم يسوعَ ابنِ الله.

ولمَّا ارتفعت الظُّلمة، يُخبرنا البشير متَّى بأنَّ يسوع صرخ عاليًا: "إيلي، إيلي، لَما شَبَقتَني؟"، وهي لغةٌ أراميَّة تعني: "إلَهي، إلَهي، لماذا تَرَكتَني؟".[٢٠] كان هذا اقتباسًا من المزمور [٢٢]، الذي هو أُنشودةٌ تألَّم فيها الملك داوُد مجازيًّا بدلَ اليهود. فما الذي قصده يسوع بذلك؟ قصدَ أن يبيِّنَ أنَّه كان في وسط ظلمة العقاب تلك يُمثِّلُ شعبَه بأخذه القِصاص الذي استحقُّوه- قصاصَ الترك من الله والانفصال والتخلِّي والنَّبذ. ما حدث

١٨) متَّى ٢٧: ٢٩، ٤٠، ٤٢.

١٩) لوقا ٢٣: ٤٥.

٢٠) متَّى ٢٧: ٤٦.

هناك على الصليب كان أن وُضِعَتْ كلُّ خطايا شعب الله على يسوع وموته إثرَ ذلك. بدلًا منهُم، فكان بطلهم، وممثِّلهم وملكهُم.

وهكذا طُبِّق الحكمُ المقضي قديمًا جدًّا في جنَّة عدن. كُسرت اللعنة. نُبذ يسوع ابن الله من الآب السماويِّ من أجل خطايا شعبه، وبعد أن صرخَ قائلًا: "قد تمَّ"، أسلمَ الروحَ ومات.

وما حصل بعد ذلك يُثير العجب. يقول لنا متَّى إنَّ ستارةَ الهيكل- وهي ستارةٌ يبلغُ ارتفاعُها نحو ثمانية عشر مترًا، فَصلَت الناس عن قُدس أقداس الهيكل حيث كان الله حاضرًا- تمزَّقت من المنتصف من أعلى إلى أسفل.[٢١] وبهذا بيَّن الله للبشريَّة بأنَّ مَنْفاهُم الطويلَ عن محضره وصل إلى نهايته. بعد آلاف السنين من اليوم الذي نظر آدم وحوَّاء إلى الوراء نادِمَين يبكيان على طردهما من جنَّة عدن، عاد البشر مُرحَّبًا بهم مرَّةً أُخرى للدُّخول في قُدس الأقداس، إلى محضر الله.

أتمَّ العبد المتألِّم وملك المُلوك وبطل البشريَّة عمله. فبحياته أنجزَ كلَّ عملٍ بارٍّ مطلوب، وبدمه دفع العقاب الذي استحقَّه الشعب لخطاياهُم. قلبَ انتصارَ الشيطان، وظفرَ بالخلاص إلى الأبد!

لكنَّه كان راقدًا في قبر حتَّى تلك اللحظة.

٢١) متَّى ٢٧: ٥١.

الفصل ٨

الربُّ المُقام والحاكم

كان المُجرمان المصلوبان إلى جانبَي يسوع لا يزالان حيَّين، والوقت كان يلوح نحو مساء يوم الجمعة. ولو أنَّهُما كانا في مدينةٍ أُخرى لرُبَّما تركَهُما الرومان مُعلَّقَين على الصليب طَوال الليل، أو ناوَلوهما فُتاتًا من الطعام ورشفة ماءٍ ليَبقَيا أحياءً ويتألَّما بضعة أيَّام أُخرى. غير أنَّ الرومان قرَّروا هذه المرَّة عدم القيام بذلك في أورشليم. ورُغمَ أنَّ الرومان كانوا يُطبِقون على أعناق الشعوب التي احتلُّوها، فإنَّهُم كانوا يُبدون شيئًا من الاحترام للشعائر الدينيَّة لهذه الشعوب. وكانت هذه هي حالهم مع اليهود؛ فغروب الشمس يومها كان يعني بداية سبتِ العيد، وهو يومُ عبادةٍ وراحة لليهود ينتهي وقت غروب شمس اليوم التالي، وحينما التمس قادة اليهود الحاكِم ليتصرَّفَ حِيال الأجساد المعلَّقة على الصُّلبان لئلَّا تبقى كذلك في السبت، وافقَ على طلبهم.

لكنَّ هذا عنى أنَّه ينبغي أن يموتَ الرجال الثلاثة المعلَّقون حالًا؛ لذا أُعطي الجنودُ الأمرَ بتنفيذ ما سُمِّي بالكروريفراغيوم (Crurifragium). يعني هذا أنَّ أحدَ الجنود جاءَ بعصا رُمحِه وضربَ ساقَيْ أحد اللِّصين وهشَّمَهُما. حتمًا صرخ الرجلُ بألمٍ شديد، إلَّا أنَّ فِعلَ الرحمة القاسية

هذا، بحسب ما اعتقده الرومان، كان يعني نهاية المعاناة بسرعةٍ أكبر؛ فالرجُل لا يقدر الآن أن يرفع نفسه ليلتقطَ أنفاسَه، وسيَموتُ في غضون بضع دقائق. وهذا ما حصل مع الرجُل الآخر. أمَّا يسوع فحينما جاءوه بالرُّمح أدركوا أنَّه مات. أدهشَهم هذا؛ لأنَّ المصلوبين لا يموتون غالبًا بهذه السُّرعة. وللتحقُّق، رفعَ أحد الجنود رمحه وغرزَه عميقًا في جنبِ يسوع. ولمَّا سحبَ الرُّمح سالَ من الجُرحِ دمٌ وماءٌ منفصلَين؛ وكان هذا علامةً حتميَّةً على موته.

كان بعضُ تلاميذ يسوع مع مريم أمِّه حاضرين في الجُلجُثة هناك يشاهدون ما حدث. شاهَدوا الجنودَ يدقُّون المسامير في مِعصمَي يسوع على الصليب، وقضيبًا حديديًّا آخرَ في قدمَيه. ثمَّ شاهدوا الصليب يُرفَعُ عاليًا في مكانه، والظلمةُ تحجُبُ الشمسَ عند الظَّهيرة. وسمعوا يسوع أيضًا يصرُخُ متألِّمًا بينما اختبرَ رفْضَ الآب له، وما قاله مُعلِنًا نهاية العَمَل. ورأوه أخيرًا يُرخي جسده إلى الأمام ويموت. فأدركوا حينها أنَّه ينبغي أن يُنزلوا جسده؛ فالرُّومان لن يفعَلوا هذا لهم.

وكان هناك رجُلٌ ثريٌّ اسمُهُ يوسف الراميّ، أحدُ أتباعِ المسيح، قد أبقى إيمانَه بالمسيح مخفيًّا حتَّى باح به في تلك اللحظة لسببٍ ما. فذهبَ إلى الحاكِم بيلاطُس واستأذنه أن يتصرَّفَ بجسد يسوع؛ فقد كان يوسف يملُكُ قبرًا قُطِعَ في الصَّخرِ حديثًا في بستانٍ مُجاور، أراد أن يضعَ يسوعَ فيه. وبعد أن أُذِنَ لهم بذلك، شرعَ يوسُفُ وبعضٌ من تلاميذ يسوع بعملٍ غيرَ سارّ: تجهيز الجسد للدَّفن. أُنزِل الصليبُ، وانتُزعت المسامير الحديديَّة من يَدَيْ يسوع وقدمَيه، وأُزيلَ تاجُ الشَّوك الموضوع على رأسه. ثمَّ لُفَّ جسدُه بالأكفان ووُضع بينها خليطٌ من الأطياب والزيوت يَزِنُ

نحو خمسةٍ وثلاثين كِيلوغرامًا، بحسب ما يُخبرنا به أحد الكُتَّاب.[1]

غير أنَّهُم لم يستطيعوا إنهاءَ العمل في الوقت المناسب؛ لأنَّ الشمسَ كانت تغرُب. فاضطُرُّوا لأن يَدَعوا إكمال عادات الدفن إلى صباح يوم الأحد بعد انتهاء السبت. وحتَّى ذلك الحين لفُّوا جسد يسوع بالأكفان وحملوه إلى القبر ووضعوه فيه. بعدها، دَحرَجوا حجرًا كبيرًا ليُغلِقوا المدخلَ وذَهَبوا إلى منازلهم.

لطالما تساءَلتُ عمَّا شَعَرَ به هؤلاء الذين كرَّسوا السنوات الثلاث السابقة من حياتهم لاتِّباع يسوع في يوم السبتِ ذاك. لا بدَّ أنَّ أحداث الأيَّام القليلة الماضية جالَتْ في أذهانهم مُتسائلين عن الوعود والمعجزات والنبوَّات والتصريحات التي وصلَتِ الآن إلى نهايتها. حتمًا كانت لديهم أسئلةٌ كثيرة. لكن مهما كانت تلك الأسئلة، فالجليُّ في الأمر هو أنَّ يسوع ميِّتٌ، تمامًا كأيِّ شخصٍ آخر. كان الرومان قد جعلوا منه أيضًا عبرةً لمن يعتَبِر، وتخلَّصَ القادةُ اليهود من مشكلةٍ أُخرى. أمَّا رجاءُ هؤلاء الذي ألقوه بالتَّمام على يسوع آمِلين أنَّه المسيحُ المنتظَر ابن الله الحيِّ، فقد مات معه هناك على الصليب.

لذا أتساءل عمَّا كانت عليه حالُ ذلك السبت. يُخبرنا الإنجيل بأنَّ التلاميذ تشتَّتوا بعد أن أُلقي القبضُ على يسوع، ويبدو أنَّهم كانوا مُختَبِئين. لا نعلمُ سِوى أنَّ عددًا قليلًا منهم كان حاضِرًا لحظة الصَّلب. وبالفعل كان يحقُّ لهم أن يقلقوا من مُطاردة السُّلطات لهم؛ لأنَّهم أتباعُ ذلك "المسيح الكاذب" ليقتلوهم مِثلَه. لذا دفعهُم الجبنُ للاختباء في

١) يوحنَّا ١٩: ٣٨-٤٢.

منازلهم، أو حتَّى منازل أصدقائهم، فرارًا من سخط الرومان. وربَّما راحوا ينوحون أيضًا. فما الذي يسعُك فعله سوى هذا بعد أن صارَ كلُّ ما رجوتَه وهمًا، أو أمنيةً اضمحلَّتْ وتلاشَت؟

أمَّا يسوع "ابن الله" و"المسيح" و"ملك إسرائيل" و"وارِثُ داوُد" و"آدم الأخير" و"العبدُ المتألِّم" ...

كانَ وَهمًا.

والحقيقة المرَّة هي أنَّ:

يسوع كانَ مُجرَّد نجارٍ.
من مدينة الناصرة.
كان صاحبَهُم.
لكنَّهُ الآن ميت.

ولا بدَّ أنَّ هذا ما شعرتْ به أيضًا مريمُ والنساء الأُخريات يومَ الأحد بينما كنَّ ذاهباتٍ إلى قبر يسوع. لم يذهبْنَ لينظُرنَ إذا ما حَفِظَ يسوع وعدَه الجسور بالقيامة من الموت. فحتَّى تلك اللحظة، لم يتذكَّرنَ حتَّى أنَّه قطع وعدًا كهذا، بل ذهبْنَ لاستِكمال عاداتِ التَّكفين التي لم يتسنَّ إتمامها لمَّا غابَتِ الشمسُ يوم الجُمعة. ولمَّا أتَتِ الفُرصة، أسرَعْنَ إلى قبر جسدِ ذلك الذي صُلب قبلَ يومَين.

ورغم أنَّهنَّ توقَّعْنَ صباحًا حزينًا ومغمومًا، فإنَّ شيئًا من ذلك لم يتحقَّق؛ فما رأَينَه لحظة وصولِهِنَّ إلى القبر صعقهُنَّ بالدَّهشة، بل غيَّرَ تاريخَ العالم كُلِّه. وإليك ما قاله البشير مَرقُس عن ذلك:

"ولَمَّا مرَّ السَّبتُ، اشتَرَت مَريَمُ المجدليَّةُ ومَريَمُ أمُّ يَعقوبَ وسالومَةُ طُيوبًا ليَذهَبنَ ويَدهَنَّ جَسَدَ يَسوعَ. وباكرًا جدًّا في أوَّل الأُسبوع، ذَهَبنَ إلى القَبر مع شُروق الشَّمس. وكنَّ يَتَساءَلنَ: «مَن سَيحَرِّكُ لَنا الحَجَرَ عن مَدخَل القَبر؟». وذلكَ لأنَّ الحَجَرَ كانَ كَبيرًا جدًّا. ثمَّ نَظَرنَ، وإذا بالحَجَر قد دُحرجَ عَن مَدخَل القَبر. فَدَخَلنَ القَبرَ، فَرَأينَ شابًّا يَجلسُ على الجانب الأيمَن، لابسًا ثَوبًا أبيَضَ، فَفَزعنَ. فَقالَ لهنَّ: «لا تَفزَعنَ، أنتُنَّ تَبحَثنَ عن يَسوعَ الناصريِّ الذي كانَ مَصلوبًا. لقد قامَ من المَوت! هو ليسَ هنا. انظُرنَ المكانَ الذي كانَ مَوضوعًا فيه. ولكن اذهَبنَ وأخبرنَ تلاميذَه وبطرسَ أنَّه سَيَسبقُهُم إلى الجَليل، وسيَرَونَه هناك، كما أخبَرَهُم من قَبل»".[٢]

تطلَّب ما وَقَعَ على مسامِعِهِنَّ وقتًا ليستَوعبْنَه. فهُنَّ أصلًا لم يرَينَ يسوعَ نفسه؛ بل أخبرهُنَّ هذا "الشابُّ" ذو اللِّباس الأبيض- وهو الملاك- بأنَّ يسوع حَيّ. أسرعَتِ النساءُ ليُخبِرن التلاميذ، الذين بدَورهِم أتوا إلى القبر ونظروا وإذ بالأكفان التي لفَّت يسوع قد طُوِيَتْ بعِنايةٍ ووُضعَتْ جانبًا. فعادوا إلى منازلِهِم مدهوشين وحائرين ومملوئين بالرَّجاء.

كان أوَّلَ مَن رأى يسوعَ المُقام من الموت هي امرأةٌ تلميذةٌ منذ زمنٍ اسمُها مريم المجدليَّة. فبعدما غادر سائر التلاميذ القبر، ظلَّتْ مريمُ لتَنوح. ولمَّا انحنت مجدَّدًا لتنظُر إلى داخل القبر الفارغ رأتْ ملاكَين

٢) مرقس ١٦: ١-٧.

جالسَين حيث كان جسدُ يسوع موضوعًا، فسألاها: «لماذا تَبكينَ يا امرأة؟». فأجابت مريم: «لقد أخذوا سيِّدي، ولا أدرِي أينَ وَضَعوه!»".[٣] لنتوقَّف الآن قليلًا لنستوعبَ الأمر: بعد كلِّ ما حصل- الحجر المدحرَج، والقبر الفارغ، والملائكة المبشِّرة بقيامة المسيح من الموت- لا يزال أقربُ تلاميذ يسوع لا يُصدِّقون أنَّه عادَ إلى الحياة. فهُم لم يعودوا بعدُ ساذجين كما كانوا في كثير من الأحيان قَبلًا. ويا للعجب! حتَّى إنَّ مريم المجدليَّة نظرَتْ في عينَي ملاكٍ وقالت له إنَّها تعتقدُ أنَّ أحدًا ما أخذَ جسد المسيح!

ويخبرنا البشير يوحنَّا أنَّ يسوع في تلك اللحظة تمامًا ظهرَ من ورائها. لكنْ لم يَخطر على بالِها أنَّه هو، وظنَّت أنَّه البُستانيُّ. فسألها يسوع: "لِماذا تَبكِينَ يا امرأةُ؟ عَمَّن تَبحَثين؟". فقالت مريمُ: "يا سيِّدُ، إنْ كُنتَ أنتَ مَن أخَذَه، فَقُل لي أينَ وَضَعتَه فَأَذْهَبْ وآخُذه".[٤] ظنَّت مريم أنَّ البُستانيَّ أخذ الجسد لسببٍ ما. أمَّا يسوع، فلَم يُجب عن سؤالها.

فالوقت حان لمريم أن تعرِف.

"فَقالَ لها يَسوعُ: «يا مَريَم!»". نطقَ باسمِها فقط، ومعه المحبَّة والحنان والقوَّة التي أبداها يسوع كثيرًا لمن حوله. فعرفتهُ مريم. "فَاستَدارَتْ وقالَت له بالأراميَّة: «رابوني!» أيْ «يا مُعَلِّمِي العَظيم!»".[٥] كان هو! في نهاية الأمر كان يسوع المصلوبُ حيًّا من جديد!

وجاء يسوع إلى تلاميذه مرَّة تلو المرَّة على مدى الأربعين يومًا التالية، أحيانًا لمجموعاتٍ صغيرة وأحيانًا لمجموعاتٍ كبيرة جدًّا. كلَّمهم مُجتمعين،

٣) يوحنَّا ٢٠: ١٣.

٤) يوحنَّا ٢٠: ١٥.

٥) يوحنَّا ٢٠: ١٦.

وخاطبَ بعضًا منهُم شخصيًّا وعلى انفرادٍ. علَّمهُم أهمِّيَّة ما حصل، وأعانَ إيمانَهم بأنَّه قامَ من الموت فعلًا! فحينما ظنُّوه روحًا، أكلَ أمامهُم شيئًا من السمك. وحينما تغلغل الندمُ في أعماق بطرس، سامَحَه. حتَّى إنَّ أحد التلاميذ، واسمُهُ توما، قال بصريحِ العِبارة إنَّه لن يُصدِّق أنَّ يسوع قامَ من الموت إنْ لم يتمكَّن من وَضْع إصبَعِه في ثُقبَي المسامير في يدَي يسوع وفي جُرح الرُّمح في جنبهِ. وبعد نحو أسبوع، كان الجميعُ مُجتمعين والأبواب مُغلَّقة، فوقف يسوع بينهُم. لا يُذكر أنَّه طرقَ الباب ودخل، بل قال الحاضرون إنَّه...وقف بينهم...وكان هناك ببساطة! وفي الحال التفتَ إلى توما وتناوَلَ يده وقال: "تَعالَ وَضَعْ إصبعَكَ هنا وَانظُرْ إلى يَدَيَّ، وَضَعْ يَدَكَ في جَنْبِي. كَفاكَ شَكًّا وَآمِن". أمَّا توما فذُهِل. وفي طرفةِ عينٍ عَلِمَ وقال للمسيح: "ربِّي وإلَهي!".[٦]

لا بدَّ أن تُدرِك أنَّ الرجل الماثِل أمامهُم لم يكُن شخصًا انتعش من غَيبوبة، وكأنَّهُ لم يكُن حقًّا ميِّتًا على الصليب واستطاعَ بطريقةٍ ما استعادةَ وعيه. بل لم يمُت يسوع ويُنادى عليه من الموت كما حدث مع ابن الأرملة أو لِعازر اللذين ماتا بعد سنواتٍ من ذلك. كلَّا! فما حدث مع يسوع كأنَّه خاضَ الموت بأكمله وخرجَ من الجهة الأُخرى. كانت الجراح لا تزال هناك. ورغمَ أنَّها ليست بحاجة إلى الشفاء أو العِلاج، فقد كانت بُرهانًا مجيدًا على الموت الذي غُلب. كان هذا يعني تغييرًا جذريًّا للتلاميذ. فالإحباطُ آلَ إلى النُّصرة، والموت إلى الحياة، والدينونة إلى الخلاص، والهزيمةُ إلى الفوز الساحق.

فيسوع حيٌّ.

---

٦) يوحنَّا ٢٠: ٢٧-٢٨.

قيامةُ المسيح من بين الأموات: الأساس والمحور والسَّند

دار جدلٌ واسع حول موضوعِ قيامة المسيح على مدى العصور، ليكونَ السؤالُ الأبرز فيها: هل حدثت بالفعل؟ يُمكن تفهُّم سبب وجود هذا الجدل، فالكثير سيَقفُ على المحكِّ. فكِّر مليًّا في هذا: إنْ كان يسوع قد قامَ فِعلًا من الموت بعد أن ماتَ على الصليب، فإنَّ أمرًا استثنائيًّا وعجيبًا حصل فعلًا، ولا بدَّ لنا جميعًا أن نُصغيَ إليه لأنَّ هذا أيَّدَ جميعَ ما قالَه عن نفسه- بأنَّه هو ابن الله وملك الملوك وربُّ الحياة والعبدُ المتألِّم والأُقنوم الثاني من الثالوث الأقدَس. ومن الناحية الأُخرى، إنْ لم يقُم يسوع من الموت، فانسَ الأمر كلَّه. لقد انتهى كلُّ شيء. لم يكُنِ الأمرُ مُستحقًّا من البداية أن يُعيرَه تاريخُ البشريَّة انتباهًا هائلًا كالذي نراه، ويمكنُنا جميعًا الآن المضيَّ قُدُمًا في حياتنا لأنَّ يسوع كان مجرَّد يهوديٍّ آخرَ من آلاف اليهود في القرن الأوَّل من التاريخ الذين ادَّعوا ادِّعاءاتٍ جريئة ثمَّ ماتوا. انتهى الأمر.

هل ترى السبب الذي يدفَع المسيحيِّين لتَفخيم حَدَث قيامة المسيح؟ إنَّها المحوَر الذي يَدورُ حولَه الإيمان المسيحيُّ كاملًا، والأساس الذي يُثبَّت عليه كلُّ شيءٍ آخر، والسَّند الذي يرتكز عليه كلُّ ما في الإيمان المسيحيّ. ويعني هذا أنَّ ما يُعلنُه المسيحيُّون عن قيامة المسيح من الموت هو تصريحٌ جوهريٌّ مُتعلِّق بالتاريخ، وليس بالدِّين. دون شكّ، هناك نتائج "دينيَّة" مترتِّبة على هذا التصريح إنْ أردتَ وصفَها بهذا، إلَّا أنَّ هذه النتائج باطلة إنْ لم يعُدْ يسوع إلى الحياة بالقيامة من الموت حقًّا وتاريخيًّا. حتَّى إنَّ المسيحيِّين الأوائل فَهِموا هذا جيِّدًا، فهُم لم يكونوا مُهتمِّينَ بمجرَّد نشرِ قصَّةٍ دينيَّةٍ تُشجِّع الناسَ، وتساعدهُم على عَيشِ حياتِهم بصورةٍ

أفضل، وربَّما تُعطيهِم عِبرة تتَّسم بالرَّجاء في وسط عواصف الحياة المخيِّبة للأمل. كلَّا! فالمسيحيُّون الأوائل أرادوا أن يعلمَ العالم بأسره أنَّهُم آمنوا حقًّا بخروج يسوع من القبر، وكانوا أنفسهُم يعلَمون أنَّه إنْ لم يقُم يسوعُ حقًّا من الموت فكلُّ شيءٍ دافعوا عنه باطلٌ وليس سوى وَهْمٍ وبلا معنًى. وكما قال بولس الرسول في إحدى رسائله: "فإنْ لَم تَكُنْ هناكَ قيامةٌ للأموات، فَمعنى هذا أنَّ المسيحَ لم يُقَم منَ الموت. وإن كانَ هَذا صَحيحًا فَإنَّ رسالَتَنا فارغةٌ، وإيمانُكم فارغٌ... وإنْ لم يَكُن المسيح قد قام من الموت، يَكونُ إيمانُكم باطلًا، وخَطاياكُم لَم تُغفَر بَعدُ...وإنْ كانَ رَجاؤنا في المسيح مُرتَبطًا بهَذه الحَياة فَقَط، فَنَحنُ أكثَرُ النَّاس استحقاقًا للشَّفَقة".[٧]

وعباراتٍ أُخرى، إنْ لم يكُن المسيح قد قام من بين الأموات، فالمسيحيِّون أُناسٌ مُثيرون للشَّفقة.

وإليك الوجهَ الآخرَ للعُملة: إنْ قام المسيحُ فِعلًا من الموت، فيعني هذا أنَّ كلَّ إنسانٍ مُطالبٌ بتصديقِ ما قاله المسيح، والاعتراف بمَلَكيَّته، والخضوع له بوصفه المخلِّصَ والسيِّد. وهذا بالتأكيد يشمَلُكَ أنت أيضًا.

لذا من المهمِّ لك- أجل، لك أنت، يا مَن تقرأ هذا الكتاب- أن تتَّخذَ قرارًا تُجاه قيامة المسيح. ليس كافيًا أن لا يكونَ لك رأيٌ معيَّن تُجاهَ المسألة. إذ تحتاج لأن تفكِّر لبعض الوقت وتُقرَّ إمَّا: "أجل، أعتقد أنَّ هذا حدث فعلًا. أظنُّ أنَّ يسوع قام من الموت فِعلًا، وهو مَن قال إنَّه هو"، وإمَّا "لا، لا أعتقد أنَّ هذا حصل بالفعل. وأرفُض أيَّ ادِّعاءٍ نادى به". قد تسمَعُ بعضَ الناس يقولون إنَّه من الصحيح ألَّا يكونَ للمرءِ رأيٌ

٧) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥: ١٣-١٩.

جازمٌ بشأن قيامة المسيح لأنَّه لا يسعُنا الوُصول إلى حقيقة الادِّعاءات الدينيَّة بُطلانها. لكنْ كما ذكرنا سابِقًا: ليست قيامة المسيح ادِّعاءً دينيًّا يقومُ به المسيحيِّون، بل هي أمرٌ تاريخيّ. كأنَّهُم يقولون إنَّ هذا حدثٌ أكيدٌ وفِعليٌّ كما أنَّ اعتلاءَ يوليوس قيصر عرشَ الإمبراطوريَّة هو حدثٌ أكيدٌ وفعليٌّ. إنَّهُ إدِّعاءٌ قابلٌ للفَحص والتَّحقيق، أي يُمكن الحُكم عليه والوُصول إلى نتيجة.

هل تؤمن بأنَّها حدثت أم لا؟

إليك قناعةَ المسيحيِّين الجوهريَّة: نحنُ نؤمن بقيامة المسيح من الموت.

لا نعتقد أنَّ التلاميذَ أُصيبوا بهَلوَسةٍ جماعيَّة؛ فهذا غير معقول إنْ وضعنا في الحسبان عددَ المرَّات التي رأى أُناسٌ فيها المسيح حيًّا بعد مَوته ودفنه، ومدَّة ذلك، فضلًا عن المجموعات المختلفة التي رأته.

ولا نعتقد أنَّ هذا كان خطأً فادِحًا. فآخرُ شيءٍ أراده قادة اليهود هو إشاعةٌ عن مسيًّا مُقامٍ من الموت تنتشر في الأرجاء، لذا كانوا حتمًا سيعرضون جسدَ المسيح أمام الناس ليَدحَضوا الإشاعة. لكنَّهُم لم يتمكَّنوا من هذا. ومن جهةٍ أُخرى، إنْ نجا يسوع بطريقةٍ ما من الموت إثر الصلب، كيفَ يقدر رجُلٌ مُصاب ومجروح ومصلوب ومطعون إقناعَ أتباعه الشكَّاكين المتعنِّتين أنَّه ربُّ الحياة وغالب الموت؟ ليس احتمالٌ وارد برأيي.

فضلًا عن أنَّنا، نحن المسيحيِّين، لا نظنُّ أنَّ التلاميذ كانوا يحبكون خدعة. فإنْ فعلوا، ما الذي توقَّعوا الحصول عليه منها؟ لِمَ لم يبوحوا

بالأمر لمَّا اتَّضح أنَّهم لن يحصلوا على ما أرادوه، ولو بقليلٍ قبلما قطع الرومان رؤوسهم وساقوا المسامير في أيديهِم هُم أيضًا؟

كلَّا! لم تكُن هلوَسةً أو خطأً أو خِدعة، بل أمرٌ آخر- أمرٌ ما جعل من هؤلاء الرجال الجُبناء الشكَّاكين شُهداء ليسوع، وشهودَ عِيان خاطَروا بكلِّ شيءٍ من أجله تحمَّلوا الكثير- حتَّى القتل المعذِّب- ليقولوا للعالم: "لقد صُلب يسوع، لكنَّه حيٌّ الآن!".

السُّلطة للحُكم والحساب...والإنقاذ

بعد يوم الأحد ذاك، أمضى يسوع أربعينَ يومًا في تعليم تلاميذه وإرسالهم ليُنادوا بمُلكه الآتي على العالم عند رجوعه في نهاية الزمان. ثمَّ صعد إلى السماء. قد يبدو لك هذا تعبيرًا دينيًّا وخرافيًّا آخرَ بلا معنى، إلَّا أنَّ كُتَّاب الإنجيل لم يظنُّوه هكذا. بل وَصَفوا صعودَ يسوع إلى السماء بكلماتٍ حرفيَّةٍ ومباشرة كما يلي:

> "وبَعدَ أن أنهى قَولَه هَذا، رُفِعَ إلى السَّماء وَهُم يُراقبونَ. وأخفَته سَحابَةٌ عن أنظارهم. وبَينَما كانوا يُحدِّقونَ فيه وهو يَصعَدُ، وَقَفَ فَجأةً إلى جانبهم رَجُلان يَرتَديان ثيابًا بَيضاءَ. فَقالا: «أيُّها الرِّجالُ الجليليُّونَ، لماذا تَقفونَ هكذا ناظرينَ إلى السَّماء؟ إنَّ يَسوعَ هذا الذي رُفِعَ عَنكُم إلى السَّماء، سيأتي ثانيةً بالطَّريقَة نَفسها التي رَأيتُموه يَصعَدُ بها إلى السَّماء»".[٨]

٨) أعمال ١: ٩-١١.

كانت حادثةً مالَتْ برؤوس التلاميذ إلى الأعلى ناظرين إلى الغيوم ومُتساءلين عن مكانِ ذهاب يسوع. لم يكُن هذا صعودًا روحيًّا، بل كان جسديًّا.

وتكمُن أهمِّيَّةُ صعود يسوع في دلالتها أكثر منها في حقيقتها. فليس القصد من هذا خروج المسيح من المشهد بطريقةٍ دراميَّة، بل كان عملًا إلهيًّا يُقصَد به تتويج يسوع وتسليمه سلطة الحُكم والحِساب، وأروعُها، سلطة الإنقاذ! إنْ كُنتَ مُدركًا أنَّك خاطئٌ ومُستحقٌّ عقابَ غضبِ الله بسبب تمرُّدك عليه، فحقيقة جلوس المسيح الآن على عرش الكَونِ هي أخبارٌ سارَّة لك. لأنَّ هذا يعني أنَّ الملك الأعظم الذي له الحقُّ في مُحاسبَتِك والحُكم عليك، هو نفسه من يحبُّك ويدعوك لتحصُلَ على الخلاص والرحمة والنعمة من يده.

هذا مع يعنيه الكتاب المقدَّس في قوله: "كُلُّ مَن يَتَّكِلُ على الربِّ سَيَخلُص".[٩] ويعني هذا أنَّ ليسوع، الربِّ المُقام والحاكم، الذي أعطاه الله كلَّ سُلطانٍ في السماء وفي الأرض، الحقَّ والسلطان أن يخلِّص الناس من خطاياهم.

ماذا ستفعل الآن؟

فلأسألك: إنْ كان هذا كلُّه حقيقيًّا، ماذا ستفعل الآن؟ إنْ قام يسوع من الموت حقًّا، وهو فعلًا مَن قال عن نفسه إنَّه هو، ما الذي ستفعله الآن؟

فلأُخبرك بما قاله يسوع عمَّا ينبغي أن تفعَل. ليسَ الأمرُ مُبهَمًا أو

٩) رسالة بولس إلى أهل رومية ١٠: ١٣.

مُعقَّدًا؛ فيسوعَ أخبرنا جليًّا. مِرارًا وتَكرارًا بينما كان يسوع يُعلِّم الجموع ويحبُّهم ويواجِهُهم بخطاياهُم، ويخبرهم عن نفسه، أخبرَهُم أن يُؤمنوا به- أي أن يَضَعوا إيمانَهم وثقتَهم فيه. إذ قال: "توبوا وآمِنوا بِهذِه البِشارة". ويُخبرُنا أحد كتَّاب الإنجيل: "فَقَد أحَبَّ الله العالَمَ كَثيرًا، حتَّى إنَّه قَدَّمَ ابنَه الوَحيدَ، لِكَيْ لا يَهلِكَ كلُّ مَن يؤمِنُ بِه، بل تَكونُ له الحياةُ الأبَديَّة".[١٠]

لكنْ للأسف، صارت كلمة "إيمان" لكثير من الناس خاليةً من المعنى وعقيمة، كالإيمان بوجود فضائيِّين أو حوريَّات بحر. لكنْ كانت كلمة الإيمان منذ قرون قويَّةً وجدِّيَّة تُقال عن شِدَّة من بَرهن نفسَه مُستحقًّا لها وعن مصداقيَّته وأمانته. وهذا ما عناه يسوع حينما قال للناس أن يُؤمنوا به. ولم يقصِد مجرَّد استنتاج أنَّه كان موجودًا في وقتٍ ما، بل أن تتَّكل عليه كلِّيًّا؛ أي ينبغي أن تُمعنَ في النظر في ما قاله وفعَلَه، وأن تُقرِّرَ إنْ كان يستحقُّ ثقتَك والمخاطَرة بحياتك من أجله.

لكنْ ما معنى هذا؟ لماذا نثق بيسوع؟ كما سبق ورأينا، تُعلِّمنا قصَّة الكتاب المقدَّس كلُّها أنَّنا جميعًا أعداءٌ لله متمرِّدون عليه. لقد أخطأنا تُجاهَه وانتَهَكْنا شريعتَه وألقَينا بسُلطته بعيدًا من حياتنا بملايين الأساليب. وبسبب هذه الخطيَّة، نستحقُّ أن نُقاسِيَ العقابَ الذي تتطلَّبه الخطيَّة: الموت. نستحقُّ أن نموتَ جسديًّا وأن يسكُبَ الله غضبَه غير المحدود علينا. الموت هو الأجر الذي جلبتْه علينا الخطيَّة.

ما نحتاج إليه أكثر الكلِّ إذًا هو أن نكونَ أبرارًا أمامَ الله، لا مُذنِبين.

---

١٠) مرقس ١: ١٥؛ يوحنَّا ٣: ١٦.

نحتاج لأن يُصدِرَ حُكمًا يكونُ لمصلحتنا، ولا يكونُ ضدَّنا. وهنا يأتي دورُ الإيمان بيسوع. إليك بشارةَ الإنجيل، الخبر السارُّ بيسوع المسيح: أنَّ الغاية من مجيء المسيح هي وُقوفُه في مكان خطاة مثلي ومثلك، والقيام بما كان ينبغي أن نفعله منذ البداية، واستنفاد لعنة الموت التي ضدَّنا. لذا فإنَّ الإيمان بيسوع هو عملٌ بالغُ الأهمِّيَّة. يخبرنا الكتاب المقدَّس بأنَّنا حينما نؤمنُ بيسوع المسيح ونثقُ به ونتَّكل عليه، نتَّحد فيه بوصفه مَلِكَنا ومُمثِّلنا وبَدِيلَنا. وفي طرفة عَين، صار سجلُّ حياتِنا وما يحويه من إثمٍ وعِصيانٍ وتمرُّدٍ ضدَّ الله منسوبًا إلى يسوع، فماتَ نتيجةَ هذا، بدلًا عنَّا. وفي اللحظة نفسها، يُنسبُ إلينا سِجلُّ حياة يسوع المثاليَّة من الطاعة والمسير مع الله، فيحتَسِبُنا الله أبرارًا على أساس تلك الحياة الكاملة.

أترى هذا؟ تحدُثُ مبادلةٌ عجيبةٌ حينما تتَّحد بيسوع بالاتِّكال عليه: يسوع يحمِل خطيَّتك ويموت بسببها. وتأخذ أنت بِره، وتحيا لأجله! وهناك المزيد أيضًا: يعني الاتِّحاد بيسوع بالإيمان أنَّ كلَّ ما هو من حقِّ يسوع بسبب طاعته الكاملة للآب، يصيرُ لك أيضًا! إذ ليسَتْ أيٌّ من بركات الطاعة من حقِّنا؛ فنحنُ لا نستحقُّها. إلَّا أنَّ جميعها من حقِّ يسوع، ونحنُ نستقبلها لاتِّحادنا به بتشبُّثٍ كبير وواثق. وإذ إنَّ يسوع حُسبَ بارًّا تُحسبُ أنت بارًّا بِهِ. يسوعُ تمجَّد، إذًا أنت ستتمجَّد. قام يسوع من الموت، وكذلك أنت- لأنَّك اتَّحدْتَ به- ستقوم من الأموات في يوم عَودته إلى الأرض في نهاية الزمان. لذلك يَصِف الكتاب المقدَّس يسوع بأنَّه "أوَّلُ حَصادِ" مَن ماتوا وسيقومون من الموت إلى الحياة.[١١] فإذ يحيا هو لأنَّ له الحقَّ في ذلك، نحيا نحن أيضًا بالاتِّحاد به.

١١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥: ٢٠.

لا يخصُّ هذا الكلام عن المسيح، بوصفه الممثِّل والبديل، جميعَ الناس في العالم. لا بل إنَّ المسيح يقفُ بديلًا عن أولئك الذين يعترفون بأنَّه حقًّا مَن قال إنَّه هو، ويجدون أنَّه قادرٌ على فعل ما قال إنَّه قادرٌ عليه، ومَن يضعون إيمانَهم وثقتهم واتِّكالهُم عليه نتيجةَ ذلك. لاحظْ أنَّنا، نحن البشر، في تمرُّدٍ مكشوف على الإله خالقنا. لذا ليس الله مُضطرًّا بتاتًا أن يُخلِّصنا. بل بالعكس، كان يُمكنه إهلاكنا وإرسالنا إلى نار جَهنَّم، وسيكون هناك تسبيح من الملائكة لله على عدله الخالِص. وكانوا سيقولون شيئًا كهذا: "هذا مصيرُ كلِّ مَن يتمرَّد على الله العليِّ!". لكنَّ محبَّة الله الخالصة لنا جعلَتْه يُرسِلُ ابنه الوحيد يسوع المسيح ليرحمَنا نحنُ المتمرِّدين، إنْ جِئنا وسجدنا له واعترفنا به وتشبَّثنا به بوصفه ملِكَنا الشرعيَّ. فإنْ فعَلْنا هذا، سيَمثُلُ هو بِدَوره بدافع محبَّته العجيبة ليكونَ البديل عنَّا، لينسِبَ إلينا سجلَّ حياته البارَّة، ويحملَ عنَّا عِقاب الموت.

لا يعني هذا أنَّ الإيمان بيسوع خالٍ من المتطلَّبات المترتِّبة عليك. كلَّا! فحينما تؤمن بيسوع وتعترف به بوصفه ممثِّلك والبديل عنك، وتعترف بأنَّه المسيح الملك، فيعني هذا أنَّه سيُمارسُ سلطانَه على حياتك، بتنبيهك بضرورة الرُّجوع عن خطاياك وتمرُّدك على الله. وهذا ما يُسمِّيه الكتاب المقدَّس التَّوبة؛ وهي حربٌ تُعلنها على الإثمِ في حياتِك وتسعى إلى النموِّ في البِرِّ لتُشابِهَ يسوعَ أكثرَ فأكثر. لكنَّك لن تقومَ بهذا وحدك؛ فالكتاب المقدَّس يُخبِرنا بأنَّنا حينما نتَّحِد بيسوع بالإيمان يأتي الروح القُدُس- الأقنوم الثالث من الثالوث الأقدس- ليسكُنَ فيك، وهو مَن يُعطيك القوَّة والرغبة لتُحاربَ الخطيَّة وتسعى إلى البرّ.

فما يعنيه الإيمان بيسوع هو الاتِّكالُ عليه ليُنقذَكَ؛ إذ ليس ثمَّة

سبيلٌ آخر لخلاص نفسك، وإدراك أنَّه ليس لك رجاءٌ في الوقوف أمام الله واحتمال عِقاب الموت الذي تستحقُّه، وليس لك رجاءٌ أن تَنالَ الحُكم بالبراءة حينما يَنظرُ إلى سجلِّ حياتك. وفي الوقت نفسه، أن تؤمنَ بأنَّ يسوع سبقَ وحملَ عقابَ الموت بدلًا عن خُطاة مثلي ومثلك، وأنَّه سبق ونالَ حُكم البراءة من أجلك، وأنَّ رجاءَك الوحيد هو بالاتِّكال تمامًا على وُقوفه في مكانك بديلًا عنك.

هذا ما يدعو إليه يسوعُ الملك كلَّ إنسان. ويسوع هو المقام من الموت والحاكم من السماء. إنَّها دعوة مفتوحةٌ بلا قيود ولا مُؤهِّلات. لن تبقى يدُ يسوع الملك مفتوحة دائمًا، إلَّا أنَّها كذلك الآن. والسؤال الوحيد هو ما إذا كُنت ستأخذ بيده وتنزل على رُكبتيك أمامه مُعترفًا به وواثقًا بأنَّه أخذَ مكانَك تحت دينونة الله، أو ما إذا كُنت ستُقرِّر المثولَ تحت هذه الدينونة وحدَك.

القرار يعود إليك. لكنْ لمدَّةٍ وجيزة.

مَن تقول إنَّه هو؟

لكنْ لمدَّةٍ وجيزة.

ليس هذا كلامًا بلاغيًّا منمَّقًا. فالحقيقة هي أنَّ يدَ يسوع الملك لن تظلَّ ممتدَّة بالرحمة إلى الأبد. وفي يومٍ ما، وقد يكونُ يومًا قريبًا، سينتهي زمنُ الرحمة ويأتي وقتُ الحساب. قطعَ يسوعُ وعدًا بينما كان يوم صلبه يلوحُ مُقتربًا أنَّه سيعودُ يومًا ليَدينَ الأحياء والأموات نهائيًّا. زمنُ الخلاص والرحمة والنعمة مديدٌ كفاية، حتَّى ذلك اليوم الذي لا يعودُ فيه القرارُ لك، بل سيُتَّخذُ قرارٌ في حقِّك. فلو لم يكُنْ قرارُك إلى حينه صحيحًا، سيُتَّخذُ في حقِّك قرارُ الابتعاد عن الله، عن يسوع، إلى الأبد.

هذا ما يلحُّ عليك بالإجابة الآن عن سؤال "مَن هو يسوع المسيح؟". كم أرجو أن تكونَ قراءة هذا الكتاب قد جعلَتْك تُدرك على الأقلِّ عدم إمكانيَّة تجاهُل هذا السؤال ببساطة. فأينما انتهى بك المطاف بالاعتقاد عن المسيح يسوع، تبقى الحقيقة راسخةً أنَّه زَعمَ بقوَّة وجسارة بأُمورٍ عنك وعن علاقتك بالله القدُّوس. دون شكّ، يُمكنك تجاهُل ما زعمَه، أو أيِّ شيءٍ آخر إنْ حاولت جاهدًا، إلَّا أنَّك حينما تسمعُ أحَدَهم يقولُ لك شيئًا من هذا القبيل: "لقد تمرَّدت على خالقك، وعاقبةُ ذلك الموت. إلَّا أنِّي أتَيتُ

لآخُذَ مكانَك، وآخذ العقابَ وأُخلِّصك"، لا بدَّ أن تُعيرَه بعضَ الاهتمام.

قد لا تكون مُستعدًّا للإيمان بيسوع المسيح فعلًا. وإنْ كانت هذه حالُك، فلماذا أنتَ لستَ كذلك؟ هل هناك تساؤلاتٌ أُخرى لديك؟ ما الذي يمنعُك؟ وقتما تتَّضح لك المُعيقات، لا تتجاهلها، بل امتحنها وفصِّلها وابحث عن إجاباتٍ صادقة لها. مسألة "مَن هو يسوع المسيح؟" مسألةٌ مفصليَّة؛ فلا تتجاهلها أو تؤجِّلها. وإنِ استنتجْتَ قائلًا: "كلَّا! لا أُومن بما قاله الكتاب المقدَّس عن المسيح يسوع، ولا أُومن بما قاله هو عن نفسه"، فليكُن. على الأقلِّ لديك شيءٌ من الجزم في هذا.

لكن، يا صديقي، فلألتمِسْ منك هذا: لا تدَعْ يومَ الحساب يُباغتك فتقول: "ليتَني فكَّرتُ في الأمرِ مليًّا! ولَيتَني سعيتُ إلى التعامل مع الأمر! ليتني صرفتُ وقتًا كافيًا لأتجاوَب بحقّ!". مهما ندمتَ في هذه الحياة، لن يكونَ ندمُك بشدَّةِ ذلك الذي في اليوم الأخير.

غير أنَّك قد تكون مُستعدًّا الآن لتقول: "أجل! أعلمُ يقينًا الآن أنَّ يسوع هو الملك وابن الله والخادم المتألِّم. وأعلَمُ أنِّي خاطئٌ ومتمرِّدٌ على ربِّي العظيم، وأعلم أنِّي أستحقُّ الموتَ لقاء هذا، وأعلمُ أنَّ يسوع وحده يُمكنه إنقاذي". وإنْ كانت هذه حالُك، فينبغي أن تعلمَ أنَّ اتِّباعك للمسيح مُمكنٌ بمعونة الله القادر على كلِّ شيء. وليس من شكليَّاتٍ لتقومَ بها سوى أن تترك خطاياك وتَثِقَ بيسوع المسيح، وتستندَ إليه، وتعتمد عليه حتَّى النهاية ليُخلِّصك في ذلك اليوم، ثمَّ تشهدَ للعالم أجمع بأنَّ هذا هو يسوع المسيح فِعلًا. هو مَن يُنقذ من الإثم والموتِ أُناسًا مثلي تمامًا.

ومثلك أنت أيضًا!

عن السلسلة

بُنيت سلسة الكُتب التي توفِّرها خدمة "العلامات التسع" (9Marks) على فكرتين أساسيَّتَين: أوَّلًا، أهمِّيَّة الكنيسة المحلِّيَّة للحياة المسيحيَّة، والتي قد تتخطَّى كثيرًا إدراكَ الكثير من المسيحيِّين. فنحنُ نؤمن في خدمة "العلامات التسع" بأنَّ المؤمن المسيحيَّ السليم هو عضوٌ سليمٌ في كنيسة.

وثانيًا، نموُّ حياةِ الكنيسة المحلِّيَّة ونشاطها بمَحوَرَةِ حياتهم حول كلمة الله. فالله يتكلَّم. والكنيسة ينبغي أن تُصغي وتتبع. الأمر بهذه البساطة. فحينما تُصغي الكنيسة وتتبع، تبدأ تتَّخذُ صورة ذاك الذي تتبعه. تبدأ في عكس محبَّته وقداسته، وتكشف عن مجده. ستتشبَّه الكنيسة به بينما تُصغي إليه. وقد يُلاحظ القارئ بعد الاطِّلاع على شارة الخدمة بأنَّ العلامات التسع المأخوذة من كِتاب **"العلامات التسع للكنيسة السليمة"** *(Nine Marks of a Healthy Church)* للكاتِب مارك دَفر (Mark Dever) تستندُ حصرًا إلى الكتاب المقدَّس:

- الوعظُ التفسيريُّ.
- علمُ اللاهوت الكتابيُّ.
- فهمٌ كتابيٌّ لبشارة الإنجيل.

- فهمٌ كتابيٌّ للاهتداء.
- فهمٌ كتابيٌّ للكِرازة.
- فهمٌ كتابيٌّ لعضويَّة الكنيسة.
- فهمٌ كتابيٌّ للتَّأديب الكنسيِّ.
- فهمٌ كتابيٌّ للتَّلمذة والنموِّ.
- فهمٌ كتابيٌّ لقيادة الكنيسة.

يُمكن قول الكثير عمَّا يجب على الكنيسة فعله لتكونَ سليمة، كالصلاة مثل. غير أنَّ الممارسات التسعة الآنفة الذِّكر هي برأينا الأكثرُ إغفالًا اليوم (على عكس الصلاة). لذا أساسُ رسالتنا للكنيسة هو ألَّا تنظرَ إلى المُمارسات الدعائيَّة أو إلى أحدَث الصَّيحات، بل إلى الله. ابدأوا بالإصغاء إلى كلمة الله من جديد.

ومن هذا المشروع الشامل تأتيكم سلسلة الكُتب الخاصَّة بخدمة "العلامات التسع" والتي تسعى إلى فحص العلامات التسع من كثبٍ ومن مُختلف الزوايا. وبعضُها يستهدف رُعاة الكنائس، وبعضُها الآخر أعضاء الكنائس. ونأملُ أن تدمج جميعها فحصًا كتابيًّا دقيقًا وبُعدًا لاهوتيًّا واعتبارًا ثقافيًا وتطبيقًا جماعيًّا وحتَّى شيئًا من الجهد الشخصيِّ. فأفضل الكُتب المسيحيَّة هي التي تجمع ما بين عِلم اللاهوت والتطبيق.

نُصلِّي أن يستخدم الله هذه الكتابات وغيرها في المساهمة في إعداد كنيسته العروس بالإشراقة والجمال إلى يوم مجيئه الثاني.

IX 9Marks
لبناء كنائس سليمة

تسعى خدمة "العلامات التسع" إلى تمكين قادة الكنيسة برؤية كتابيَّة ومصادر عمليَّة لإظهار مجد الله للشعوب بواسطة كنائس سليمة.

ولتحقيق هذا نُريد أن نرى الكنائس تتَّسم بهذه العلامات التسع التي تدلُّ على سلامتها:

١. الوعظُ التفسيريُّ.
٢. علمُ اللاهوت الكتابيُّ.
٣. فهمٌ كتابيٌّ لبشارة الإنجيل.
٤. فهمٌ كتابيٌّ للاهتداء.
٥. فهمٌ كتابيٌّ للكِرازة.
٦. فهمٌ كتابيٌّ لعضويَّة الكنيسة.
٧. فهمٌ كتابيٌّ للتَّأديب الكنسيِّ.
٨. فهمٌ كتابيٌّ للتَّلمذة والنموِّ.
٩. فهمٌ كتابيٌّ لقيادة الكنيسة.

يمكنك زيارة موقعنا باللغة الإنكليزيَّة www.9Marks.org لتجدَ جميعَ منشوراتنا بالتعاون مع الناشر (Crossway)، وغيرها من المصادر الأخرى.

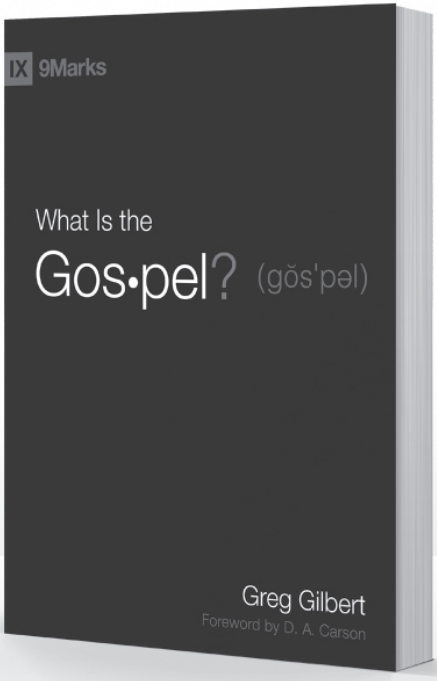
IX 9Marks
What Is the
Gos•pel? (gŏs'pəl)
Greg Gilbert
Foreword by D. A. Carson

قريبًا باللغة العربيَّة من غريغ غيلبرت

كتاب "ما هي بشارة الإنجيل؟"

"كتب غريغ غيلبرت، ذو العقل اللامع والقلب الرعويِّ، كتابًا سيساعد الباحثين عن الحقِّ والمسيحيِّين الجُدد وكلَّ مَن أراد فهم بشارة الإنجيل بأكثر وضوح. لطالما انتظرت كتابًا كهذا!"

كيفن دي يونغ (Kevin DeYoung)
راعي كنيسة يُنيفيرستي المُصلِحة (University Reformed Church)
في إيست لانسينغ، ميشيغن

"أجِدُ هذا الكتيِّبَ عن بشارة الإنجيل أكثر الكتبُ وأوضحها وأهمِّها بين الكُتُب التي قرأتُها في السنوات الأخيرة".

مارك دَفر (Mark Dever)
راعي كنيسة كابيتول هِل المعمدانيَّة (Capitol Hill Baptist Church)
واشنطن دي. سي.

للمزيد من المعلومات (باللغة الإنكليزيَّة)،
يُرجى زيارة موقع الناشر www.crossway.org

جِدِ الإجابة عن الأسئلة الأهمِّ على الإطلاق

”يبحثُ غريغ غيلبرت (Greg Gilbert) صفحات الكتاب المقدَّس بطريقةٍ مقروءةٍ وموجزةٍ ومدهشة ليُخرِج حقيقة ما قاله السيِّد المسيح عن نفسِه. إنَّ هذا الكتاب ضروريٌّ للمؤمن بالمسيح والباحث عن الحقّ“.

جيم دالي (Jim Daly)

رئيس هيئة ”التركيز على العائلة“ (Focus on the Family)

”سيكون لهذا الكتاب القصير دورٌ عظيمٌ لتَعريف الناس إلى أروع شخصٍ على مرِّ العصور“.

رون براون (Ron Brown)

مدرِّبٌ فريق كورن هسكرز في جامعة نبراسكا (University of Nebraska Cornhuskers)

”إنَّ أثمَنَ ما لدى غريغ هو قُدرته على تبسيط الأمور العميقة. يُساعدنا كتابُه هذا على تمييز السيِّد المسيح مثلما قدَّم نفسَه مقارنةً بما ابتدَعْناه عنه“.

جاي. دي. غريَر (J. D. Greear)

راعي كنيسة القمَّة (The Summit Church) في دورهام، كارولينا الشماليَّة

”يسلِّطُ غريغ الضَّوء من جديدٍ على مشاهدَ مألوفةٍ، وهكذا فإنَّه يربط الحقائقَ بمعانيها. إنَّها دعوةٌ لك، أيُّها القارئ، لتتعرَّفَ إلى يسوع المسيح“.

مارك دَفر (Mark Dever)

راعي كنيسة كابيتول هِل المعمدانيَّة (Capitol Hill Baptist Church)، واشنطن دي. سي

ورئيس منظَّمة ”العلامات التسع“ (9Marks)

غريغ غيلبرت (Greg Gilbert) يحمل شهادة الماجستير في الإلهيَّات (M.Div) من كلِّيَّة سَذرن بابتِست المعمدانيَّة للدراسات اللاهوتيَّة (Southern Baptist Theological Seminary)، وهو الراعي المسؤول في كنيسة ثيرد آفِنيو المعمدانيَّة (Third Avenue Baptist Church)، في لويسفيل، كنتاكي. ألَّف عددًا من الكتب، وشارك كيفن دي يونغ (Kevin DeYoung) في تأليف كتابٍ عن مهمَّة الكنيسة.

CROSSWAY
www.crossway.org